رجال وسيران

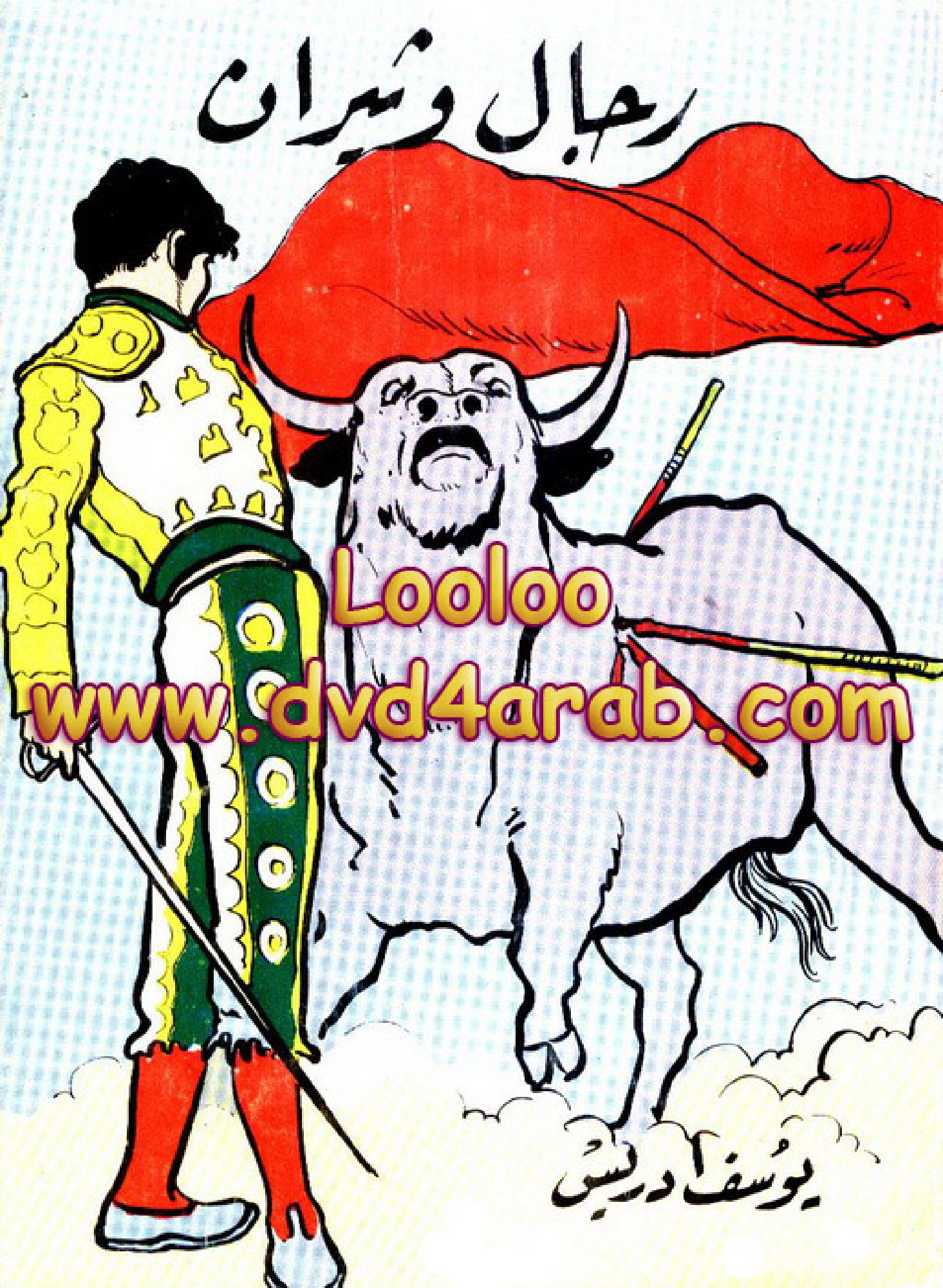

Looloo
www.dvd4arab.com

يوسف ادريس

كلمـــــة

حين عدت من الجزائر فى صـــيف عام ١٩٦٢ ، كان يحدث كلما لقيت صديقا أن يسألنى عن موعد صـــدور الرواية او المسرحية التى لابد ساكتبها واســـتوحيها من احداث الثـــورة الجزائرية ، خاصة فى اثناء تلك الفترة الحرجة التى أعقبت الاستقلال . كانت تلك هى المرة الثانية التى أعيش فيها مع الثورة الجزائرية : الأولى حدثت قبل الاستقلال بعام حين ذهبت مع بعثة والتحقنا بجيش التحرير وحضرنا بعض معاركه ، والثانية كانت هذه المـــرة . وكنت لا استغرب لهذا الاجماع الغريب على ضرورة أن اكتب رواية او مسرحية عن ثورة الجـــزائر ، اذ لابد فى نظر هؤلاء الأصدقاء الطيبين لشخص مثلى ، عاصر الثورة كفاحا مسلحا ورآها الى أن تجسدت على هيئة دولة بما صاحب التجسد من ميلاد امة وخلق كيان ، لابد أن يكون أحق الناس بالكتابة عن هذا الحدث التاريخى ، ومن ناحيته لابد أن يجد هو أن من واجبه أن يكتب هذا العمل .

ولكن كل تلك اللقاءات والتساؤلات كانت

Looloo
www.dvd4arab.com

تدفعنى لمزيد من التعاسة . ان مشكلتى دائما انى لا استطيع ان اكتب الا من « واجبى » ان اكتب ، ولم اجرب ابدا ان افرض على نفسى موضوعا ولا ان اعطى لموضوع بالذات حق الأولوية فى الخروج الى حيز الوجود . ولقد انفعلت بكل ما رايت فى الجزائر قبل الاستقلال وبعده ، ولكن يبدو كأن الانفعال لم يكن قد نضج الى الدرجة الكافية لكسر القشرة الارادية والخروج الى الحياة . كانت الصورة الأساسية لأى عمل يكتب عن ثورة عظيمة كثورة الجزائر ، انه يجب ان يكون فى مستوى عظمة هذه الثورة ، وانى لى بهذا المستوى وانا لا ازال بالكاد اتأمل ما رايت ووعيت ؟ وانى لى به والمهمة شاقة ، فالقضية لا تزال دائفة بالحماس ولا يستطيع الانسان فيها الا ان يجارى الشعور العام المنفعل بها بحيث تبدو الموضوعية نوعا من السخف لا محل له ؟

كنت اهز راسى للأصدقاء واقول ! اجل سأكتب .. حتما سأكتب ، اقوله وانا اول المدركين انى فى تلك الفترة بالذات لن استطيع ، وان احساسى بنفسى يؤكد لى انى فى حاجة الى زمن استوعب فيه كل شىء ، والمواطنون ايضا فى حاجة الى الزمن نفسه لتثمر لهم الكتابة عن قضية حافلة كالقضية الجزائرية .

وفجأة — تماما كما تعودنا ان نقول فى

القصص — وجدت موضوع « رجال وثيران » يدق مطالبا بالخروج ، موضوعا كان مفاجأة تامة لى ، فلم اكن اتوقع ابدا وانا عائد من اسبانيا (لم تمض على عودتى ايام) ان يأتى بمثل تلك السرعة ، ولا ان يجد لدى كل تلك الاستجابة وهذا الحماس .

وهكذا كتبت « رجال وثيران » ، ليس بدلا من الموضوع الأول ولا هربا منه ولا محاولة للرمز او ربطه بصراع مرت به القوى الثورية فى الجزائر ، ولا اى شىء من هذا كله . انها قصة مستقلة تماما ، حوادثها وان كانت تدور فى اسبانيا الا ان بطلها هو الانسان ، فى اسبانيا او فى اى مكان . قصة كانت ولا تزال تثير دهشتى ، فلم اكن اتوقع من مرة واحدة شاهدت فيها مصارعة الثيران بعد ظهر ذلك اليوم من ايام اغسطس المدريدية ، وفى ملعبها الكبير ، آخر ما كنت اتوقعه ان يختمر خلال ساعتين عشتهما مع المصارعة والثيران والمصارعين هذا العمل ، او اى عمل آخر حتى لو كان سلسلة من المقالات .

وبعد :

كثيرا ما نسمع الناس يتساءلون : هل ادبنا اصبح عالميا ؟ ومتى وكيف يصبح ادبنا عالميا ؟ والسؤال بلا شك يدل على طموحنا كتابا وقراء .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكننى احب ان أؤكد ان اختيار اسبانيا او اى بلد آخر من بلاد العالم مكانا تدور فيه احداث قصة ليس هو الطريق ابدا لكى يصبح ادبنا انسانيا عالميا ، لان هذه الانسانية والعالمية ليس لهما الا طريق واحد هو الكتابة بصدق ورأى واحساس عن انفسنا التى نعرفها ، او عن غيرنا ممن لا تقل معرفتنا بهم عن معرفتنا بأنفسنا . بل هو الطريق الوحيد لكى تصل الكتابة — اى كتابة — الى مرتبة الفن — اى فن — لا يهم محليا كان او عالميا ، والمشكلة فى رأيى اننا كثيرا ما نقحم مفهوماتنا العقلية او الرياضية ، او فى معظم الأحيان السياسية ، اقحاما على ما نريد وباستطاعتنا قوله ، فتكون النتيجة ان نفقد خيط الانفعال الصادق ونرقص على السلم . انما هى فى الحقيقة محاولة لكى نرى أنفسنا هنا فى مصر والعالم العربى عن طريق غير مباشر فى ظاهره ، ولكنه فى أحيان يعطينا رؤى أكثر صدقا ووضوحا وعمقا .

هذا عن علية (كما يقول الفلاسفة) كتابة هذه القصة ، أما اذا تركنا الأسباب القابلة للنقاش والأخذ والرد جانبا ، فكل ما اذكره الآن وبعد مضى أكثر من عامين على كتابتها لأول مرة انى كنت سعيدا جدا ، لا اكاد انتهى من مشاغلى اليومية حتى اسرع الى المكتب حيث

تنتظرنى معركة اخوضها بكل ذرة من كيانى ، متحمسا ، منتشيا ، احس انى لأول مرة ومن خلال القصة اخوض صراعا حقيقيا عميقا وانفعل بكل لحظة من لحظاته .. الصيف فى القاهرة ، والحر فى النهار ، والنسمات رقيقة كشمس الغسق فى الليل ، والصراع دائر فى خيالى يتوهج احيانا حتى ليبلغ قيظ يوليو ، ويشف احيانا حتى ليهب كسرب صغير من نسمات طفلة ترد رؤيتها الروح وتنعش القلب الخامل ، وصور اسبانيا والأسبان — ارق واعنف واغلب واشجع واحكم واجن شعب من شعوب العالم — وكأننا نحن العرب كنا هم ، او هم كانهم كانونا ، ذلك الشعب بلغته ، بأغانيه ، برقصه ، بفقره ، بصبره ، بجماله ، بحنينه الى الماضى المجيد ، بالحنين الأكثر الى مستقبل . هذا الشعب بكل صوره وانفعالاته المتغيرة الدائمة التغير ، تلون أشكال الصراع وتزكيه . لقد كانت أيام كتابتها جميلة حقا ..

واخيرا ..

فلابد لنا ايها الأصدقاء الذين كنت — وأرجو ان اكون — لا ازال عند حسن ظنهم ، لابد لنا من لقاء آخر على ارض الجزائر ، وانا اشد الناس ابتهالا كى يأتى اللقاء اقرب ما يكون ، واروع ما يكون .

Looloo
www.dvd4arab.com

أما هنا ونحن فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، فانى أستسمحكم يا قراء العربية ان اقدم هذا العمل المتواضع — حقيقة لا قولا — وردة حمراء كبيرة ، ليس التلوث بالدم سبب احمرارها ، الى الشعب الأسبانى القوى المتفائل الرقيق .

القاهرة — يناير ١٩٦٤

يوسف ادريس

— ١ —

أعرف أن هناك صداقة مثلا وزمالة وعلاقات اعجاب .. أعرف أن هناك عداوة أو محبة أو لا مبالاة ، ولكنى لا زلت لا أعرف كيف أضع اسما للعلاقة الانسانية التى ربطتنى به . من ناحيتى كنت واحدا من ثلاثين ألف آدمى لا تجمع بينهم الا « الأرينا » الهائلة الحجم ، ولا يلتقون الا عند رغبة ملحة واحدة .. رغبة من رغبات البشر التى تظل تلح وتصر حتى تفرض نفسها وتتحقق بطريقة أو بأخرى . فرد من آلاف .. مجرد طرف سلبى ، عملى طول الوقت أن أجلس وأشاهد ، والجهد الايجابى الوحيد الذى كنت أقوم به لا يتعدى بضع محاولات ، معظمها فشل ، لكبت انفعالى كى لا أنساق وراء المواء الجماعى اذا صدر عن الآلاف ، أو اخفاء وجهى اشمئزازا أحيانا ، أو خوفا ، أو لضعف الأعصاب .

أما هو فقد كان بالنسبة لى مجرد وجه اختارته عيناى من بين الآلاف لتلمحه ، وما تكاد تلمحه حتى تتوقف

Looloo
www.dvd4arab.com

عنده كقطار سريع يبطىء ليعود يمضى فاذا بابطائه يتحول الى وقوف . لم تتوقف عيناى لأن الوجه كان شاحبا ، لم يكن أصفر ، ولا كانت هناك نقاط عرق ، ولا كان الشحوب بارادته ، الشعور الذى دهمنى وأجبرنى على التوقف ان نظرتى الأولى له أشعرتنى أن هناك شيئا هو الذى أذهب لونه ، وبيض قمحية وجهه ، شىء وسط الزحام الشديد لا يمكن ادراكه أو ضبطه ، ولكن كان باستطاعتى أن أقسم أنه هناك ، وأنه المسيطر على كل تلك الآلاف وان كانت ملامحهم لا تنجح فى الكشف عنه ، ولا يهديك اليه الا نظرة لذلك الوجه ، أجل هناك كعقاب خفى داكن رابض فوق سماء « الأرينا » .

عقاب له ثلاثون ألف مخلب ، فى كل وجه ينشب مخلبا وطواطيا لا يمكن انتزاعه ، ويفعل هذا دون أن يعى به أو ينتبه اليه أحد ، أو يترك أثرا واحدا يشير الى وجوده لولا ذلك الاحساس المبهم الذى تحسه وتشم رائحته تتشرب .. احساس جامع شامل له دوى الجنازات القادمة من بعيد ، والانقباض الذى يشمل البيت اذا نعقت فى غنائه بومة .

وربما الذى استوقفنى فى الوجه أنه الوحيد المتميز الشحوب ، وكأنه من نوع خاص ناتج عن احساس خاص

لا يشاركه فيه سواه ، وكأنه وحده هو الذى يدرى ، ووحده الذى يتوقع ، وحده الذى حين تراه ينتقل اليك علمه ، وتبدأ أنت الآخر تدرك وجود شىء فى الجو والمكان ، شىء آخر غير النـاس والازدحام وشمس ما بعد الظهر وضجة « الفيستا » والاحتفال ، شىء حاضر خفى داكن رابض ينتظر اللحظة المناسبة ليعلن حتما عن وجوده وينقض ، وفى الحال ، ودونا عن الثلاثين ألف انسان ، وبمثل شرارة التماس لابد أيضا أن يدق قلبك دقة الخوف ، اذ تدرك على الفور ادراكا غريبـا مبهما وكأنما يهبطعليك كالالهام ، أن ثمة شيئا غير عادى سيقع اليوم لصاحب ذلك الوجه ، وأنه أبدا لن يغادر « الأرينا » بنفس الحال التى جاء بها .

هذه الدقة المفاجئة وما صاحبها من انزعاج صغير عابر ، حددت لحظة خطيرة غريبـة فى حيـاتى ، لحظـة التقـائى بانسـان جـديد لم يكن منـذ ومضة يعنيـنى أمره . فاذا بالدقة تبـدأ معهـا علاقة ، وتتعدى العلاقة بسرعة مراحل التعارف الأولى الى مرحلة الصداقة ، بل تتعداها الى ما هو أكثر .. الى مرحلة القلق العظيم على الصديق والتتبع المشفق لخط مصيره .

وهكذا ألقيت النظرة الثانية على صديقى الجديد

Looloo
www.dvd4arab.com

وكأن بين النظرتين عاما ، وكأننى أعود أتفحص ملامح عزيز طالت غيبته محاولا أن أدرك ما حدث له ولشكله من تغيير • كان الوجه دقيقا نحيلا يصنع برأسه الأنيق الذى بدأ شعره من أمام يخف ويتراجع ويستعد لتسليم الرأس — أو الجزء الأمامى منه على الأقل — لصلع قريب •• كان يصنع مع وجهه النحيف مثلثا رشيقا صغيرا كل ما فيه حتى أذناه رشيق صغير • ولكل وجه فى الدنيا قصة يحكيها أو معنى أو صيحة يطلقها ويعلن بها عن جماله مثلا أو ذكائه ، أو عما يكمن فى أعماق صاحبه من دهاء • ذلك الوجه كان من الوجوه التى لا تتحدث عن نفسها •• من الوجوه التى نحس بها دائما مشـــغولة بحدث خارج عنها أو بقضية • ولحظة رؤيتى الثانية له لم يكن وجهه يتحدث عن شىء بالذات أو مشغولا بشىء ، كان صامتا •• صمتا لو صبرت عليه لاستحال الى حزن ، حزنا لابد شفافا كحزن الملائكة أو ابتئاس الأطفال •

وكان يبدو فى الثالثة والعشرين ، ولكن مجرد النظر فى وجهه ومراقبة صمته وهو يأخذ لون الأحزان البريئة يرغمك أيضا ، ولا تدرك كيف ، على أن تحس تجاهه — ومهما كانت سنك • ولو كنت أصغر منه — بأبوة لا تفسير لها ولا تبرير •

— ٢ —

كنت قد حضرت — كأى مقدم على عمل لأول مرة — مبكرا ، وقضيت بعض الوقت أطوف « بالأرينا » وممراتها ودهاليزها ، وأراقب السوق السوداء لبيع التذاكر ، وآلاف السياح والأتوبيسات الفاخرة التى لا يكف عن التحديق فيها الأطفال الأسبان أشباه العراة وهى تقف ويهبط منها خليط عجيب من البشر من بين لغاته الكثيرة تميز بسهولة الخنافة الأمريكية الممدودة والغالبة ، ومئات العربات الخاصة •• أفخم وأحدث عربات من نوعها فى العالم ، وأبوابها تفتح لكى تنساب منها سيدات •• أجمل سيدات •• وأروع عطور •• وأغلى وأشـــيك فساتين ، ورجال بصلعات وكروش وأرصدة مكتظة ، وشبان أثرياء بالكابورليهات ، والجميع يمضـــون الى مقاعدهم المحجوزة ، بينما جمهور اللعبة الحقيقى — أفراد الشعب الأسبانى — يتقاتلون حول التـــذاكر ، ويتدافعون أمام باب الدخول ، وفى الداخل لهم المدرجات المواجهة لشمس مدريد فى الصيف وما أحرها •

Looloo
www.dvd4arab.com

ومن متحف المصارعة عدت الى مكانى فى المدرجات حيث المتحف البشرى الزاخر الوافد على مدريد والساحة من كل أنحاء الأرض ، وكيف تقبل أفواجه كالسحب المثقلة التى لا تلبث أن تبطىء حركتها وتتكاثف وتتساقط فى أنحاء الدائرة الكبيرة على هيئة أجساد غير واضحة المعالم فوق مقاعد مقامة من الأسمنت المسلح • ساحة و « أرينا » لا تختلف كثيرا عن تلك الموجودة فى روما التى أقامها الرومان من آلاف السنين ليتسلى الحكام الرومانيون بصراع العبيد العزل مع الوحوش ، كل الخلاف هنا أن الانسان زود بدلا من المسلة بقطعة أطول من المعدن على هيئة سيف •• ولكن الصراع لا يزال هو الصراع •

وربما استدارة الأرينا ، أو ربما هى الحلقة البشرية الهائلة المحيطة بالدائرة الرملية الفارغة ، ربما الحيرة ، ربما الدوى المستمر الذى لا ينقطع ، ربما العقاب الرابض فى مكان ما من سماء الساحة نائبا مخالبه فى الوجوه والملامح ، ربما أى شىء ، ولكن الذى لا شك فيه أن ثمة قلقا ، وكأن أحدهم قد ألقى فى قلب الساحة ببضع قنابل مثيرة للقلق والترقب واللهفة ، لا على المصارعة وبدئها والرغبة أن تتم بسرعة ، فكلنا نعلم أنها تبدأ فى السادسة وأن بيننا وبينها بضع دقائق لا تحتمل

اللهفة أو الترقب • أنه قلق وترقب ولهفة المشغولين بشىء قاهر حاد ، لا يدرون ما هو بالضبط وما الذى يشغلهم به تلك المشغولية العظمى •• المشغولية التى تجعلك لا تستقر على وضع ولا تستسلم لموضوع ، بحيث لا يحتمل منك الشىء أكثر من نظرة ، وبحيث يبدو الحديث مملا بعد جملة حواره الأولى ، وأجمل الفتيات تكفيها التفاتة •• مشغولية عظمى غير محددة أو معروفة الأسباب ولكنها قائمة وموجودة وذات أزيز •

وكان على أن أكافح رغبتى فى التطلع ودوامة المشغولية المبهمة التى تبتلعنى كالآخرين ، كى أستخلص نفسى وأستمع للهاتف وأعود أتابع صاحب الوجه الشاحب الصامت الرشيق •

-٣-

كانت ساعتى قد بدأت تشير الى السادسة ، وكنت قد بدأت أميز خلال المسطحات البشرية ذات الألف لون ولون والتى تنسدل كسجادة هائلة مزركشة فتغطى المدرجات دون أن تترك فجوة •• كنت قد بدأت أميز أبواب الدخول ، والمكان المخصص لرئيس « الفيستا » ،

Looloo
www.dvd4arab.com

اذ لابد لكل احتفال من رئيس ، وركن الفرقة الموسيقية ، والمظلة التى تظلل نافخى الأبواق الثلاثة • والساعة كما قلت كانت قد أشرفت على السادسة ولم يحدث فى الأرينا ولا داخل الحلقة المغطاة بالرمل والمتناثرة فيها صناديق الاعلانات ما يدل على قرب البدء • ولكن جارى الأسبانى الضخم الجثة العالى الصوت وقد لمح دهشتى وحدثنى بأسبانية لا أفهم منها الا أن أرد بقـــولى : لا أفهم الأسبانية •• نون كومبريندو اسبانيول •• ولم يعقه هذا عن مواصلة الحديث وعن شرح ما يريد قـــوله لى باستعمال لغة الأيدى والاشارات العالمية • وفهمت منه أن كل الساعات غير معتمدة ، وأن الساعة الوحيدة التى ستحدد الوقت هى ساعة الأرينا المطلة من برج عال منتصب فى جزء من محيط الدائرة •

وكانت هذه الأخيرة تشير الى السادسة الا أربع دقائق ، واسترحت فأمامى بعض الوقت أستطيع أن أوقن فيه مرة أخرى أنى لست فى حلم ، وأن الظروف قد ظلت تتآمر على حتى قادتنى على الرغم منى الى مدريد ، وانى الآن فى أكبر ملعب لمصارعة الثيران فى أسبانيا ومن ثم فى العالم كله ، وأنه بعد أقل من خمس دقائق سيحدث أمام عينى ذلك الصراع الغريب الذى ألهب مخيلتى وأنا طفل فى قصة دماء ورمال ، والذى غذى

خيالى شابا وأنا أقرأ لهيمنجواى ، الصراع الذى انفعلت به قرائح فنانين وكتاب وشعراء ومخرجين ، الصراع الذى صنعت منه مآسى وأهوال ، وفى خضمه هلك أناس واستشهد أبطال ، ونمت قصص حب •

وكان على أن ألقى نظرة على صاحبى • هذه المرة وجدته قد أصبح فردا فى طابور المصـــارعين الثمانية الآخذين أماكنهم فى الممر خلف « البيكادورز » (راكبى الخيل) فى انتظار تحرك الموكب الذى يبدأ به العرض ، وكان قد وضع فوق رأسه قبعة الميتادورز المستعرضة السوداء ، وخيل لى أنها تبتلع جزءا كبيرا من رأسه الصغير وتخفى بعض وجهه • ولأمر ما تصادف أن رفع رأسه وتصورت أن نظراتنا التقت ، ولكنى كنت أعلم أنه مجرد خيال فمن موقفه البعيد هو قطعا لا يرى نظراتى • ان ما أمامه مجرد نقط صغيرة سوداء تكون رءوسا لا تهمه معالمها بقدر ما يهمه أن تصدر عنهـــا بعد قليل ضجتها التى تدوى : أوليه ، تحييه وتستحسن عمله •

ولم يكن فى مشهده ومشهد زملائه السبعة المصطفين أى روعة مما تجسدها السينما بألوانها وعالمها ، كانت ملابسهم بديعة النقوش حقيقة تستوقف البصر ، وتلمع زخارفها اذا تحركوا وتومض ، والجاكتة معلقة فوق

Looloo
www.dvd4arab.com

الكتف الأيمن كوضعها التقليدى ، والسراويل ضيقة حتى تكاد تمنع الحركة ، وكان هذا هو كل ما هنالك بلا تضخيم أو تهويل .. بل هم بملابسهم أنظف وأجمل ما فى الموكب المنتظر ، فالخيل التى يركبها البيكادورز عجفاء عجوز ودروعها مهلهلة ، وحاملو الأعلام أزياؤهم غير متشابهة كما يجب ، وكما تظهر لنا العدسات التى ما أكثر ما تفترى على الواقع وتقلب الفقر روعة والدنيا بكل عيوبها وقصورها جنة .

ولكنى فى اللحظة التالية كان احساس غامر — وكأنما ادخرته لهذه اللحظة — قد طغى علىّ تماما .

وانتشيت به ! الاحساس باللعبة .. الاحساس أنك بسبيلك الى أن تلهو وتختلس من وراء ظهر الزمن ساعتين تشبع فيهما متعة ومرحا وانفعالا .

نفس الاحساس الذى يراود الطفل حين يلمح اللعبة التى اشتراها له أبوه تطل من حافة الحقيبة أو اللفافة ، ويتأكد تأكدا قاطعا من أن عينيه لم تخدعاه وأنها فعلا لعبة جديدة اشتريت خصيصا له . هذه اللحظة « ما بين الاحساس بأنه حالا سيلعب بها وبين تسليمها له وبدء لعبة حقيقية بها » نشوة كهذه غرقت مختارا فيها وأنا أقول لنفسى ، لا فرق الا أن هذه لعبة أكبر بكثير ومضمونة أيضا ، والا لما جاء كل هذا العدد من الناس ودفعوا آلاف

الجنيهات ليشاركوك فى ممارستها .. والأمتع أنها لعبة خطرة تحفها المفاجآت وتتخلع لها القلوب .

وحين شملت الأرينا تنهيدة عميقة وكأنما هى قادمة من تحت الأرض متصاعدة فى شمول واتساع لتغطى وجه السماء . أول عمل جماعى يقوم به المشاهدون معا ، عمل أوقف مشغوليتهم . تنهيدة كانت ايذانا بأن لم يبق على السادسة الا أقل من دقيقة .

وفى ثوان كانت كل صناديق الدعاية قد أخرجت من الساحة ، وسكتت الأصوات جميعا ، وتحولت ضجة المكان الى فحيح ، واتجهت الأنظار كلها فى ترقب دافق الى نافخى الأبواق .

ولم نسمع دقات الساعة .

فقد طغت عليها أصوات النفير والرجال الثلاثة يبذلون أقصى قواهم ، ومع هذا لا تكاد أصوات أبواقهم تسمع فى أنحاء الأرينا كلها .

ولكنه كان قد أعطاها .. متهافتة حقيقة لا تدوى أو تصم الآذان وتوقع الرهبة فى النفوس ، ولكنها وهذا هو المهم اشارة البدء .

Looloo
www.dvd4arab.com

— ٤ —

وعلى مصراعيه انفتح جزء من سور الدائرة الرملية المواجه للممر الذى يلاصقنا ، انفتح على هيئة باب. وبينما جزء الموكب الأمامى يدلف متأنيا الى الساحة كنت بكل الشغف وحب الاستطلاع والقلق العظيم على الصديق أختلس نظراتى الأخيرة الى طابور المتادورز والى صديقى — الثانى الى اليمين فى الصف الأول — والطابور صفان : أربعة من هنا ، وأربعة من هناك ، وبين كل ميتادور وآخر مسافة .

ومن المقاعد فى أقصى اليمين تبينت أصوات الفرقة الموسيقية تعزف المارش ، والطبول تدق والأنغام تهب علينا من بعيد باهتة المعالم مخنوقة بالحشرجة . وأبالغ اذا قلت انى دهشت ، فالواقع مرت الحركة ساعة حدوثها ببساطة .. نفس البساطة التى حدثت بها حين رسم كل منهم فى آخر لحظة لوقوفه ، اللحظة التى سيبدأ بعدها يتحرك ، رسم كل منهم علامة الصليب على صدره .

ولم يدهشنى أنى رأيت صديقى يفعل مثلهم مع أنه لم يكن من النظرات الأولى اليه شديد التدين . أخذتها على أنها نوع من العادة الكاثوليكية لا أكثر ، وكدت أقف من صاحبى فى هذا الأمر موقف المحايد لولا أنى لمحت أنه لا يؤديها كعلامة أو كواجب ، فى وجهه بالذات — فى نصف وجهه الذى كنت أراه من مكانى — كان ثمة ابتهال حقيقى واضطراب ، لابد علت معه دقات قلبه وخيل لى أن لونه ازداد شحوبا .

ولكنها لمحة سريعة ، كان أسرع منها ذلك القناع الذى انتشر فوق وجهه وكسا مثلث ملامحه الصغير بقشرة صخرية معتمة أخفت كل شىء حتى الشحوب ، وما بقى ظاهرا كان قسوة مفاجئة مجهولة المصدر . وفى اللحظة التالية كان يتحرك ليدخل الأرينا .

ورغم أن الموكب كان يأخذ طريقه على رأسه البيكادورز (حاملى الحراب) ، ووراءهما طابور الميتادورز (المصارعين) ، تتبعهم صفوف غارسى الأعلام (الباندريللوس) ، وصبيان اللعبة وعمالها .. موكب حافل ملفت للنظر يستولى على اهتمام الجميع ويصفقون له ، وهو يأخذ طريقه الى حيث منصة الرئاسة . ورغم انشغال الناس جميعا بالموكب كنت لا أزال أفكر فى علامة الصليب ، ومن زاوية جديدة غيرت الموقف فى نظرى

Looloo
www.dvd4arab.com

تماما • ان مجرد تسمية الشيء باللعبة — حتى لو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوش — يعطيها فى فهمنا لونا ما •• معنى غير جدى جدية تامة حتى لو كانت خطرة ، فهى ليست سوى لعبة • واللعبة لا تقترن فى تفكيرنا باللعب فقط ولكن أيضا بالهزل • ولسبب ما •• هناك •• فيما وراء كل ما كنت أراه من جدية وخطورة واستعدادات ، كانت فكرة أن المسألة كلها ليست بالوعورة والخطورة التى صوروها لنا فى السينما والروايات ، ولابد هناك من طرق متفق عليها ومتبعة للتقليل من خطورتها فى الباطن مع اضفاء ثوب الرهبة عليها من الخارج •

هذه الحركة التى لمحتها فى آخر لحظة ، جعلت الشك يبدأ يتسرب الىّ فى اعتقادى ، وجعلتنى أتساءل : أليس من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعة حقيقية فعلا بلا أى عبث مما اعتقدته أو اتفاق ، وأن الناس جميعا يأخذونها جدا ما عداى ؟

تساؤل راحت الأحداث المتعاقبة تدعمه من ناحية وتنفيه من نواح ، وظللت لا أجد البرهان الدامغ الذى لا يقبل الشك ، ولم أكن أعرف ما ينتظرنى يومها •

— ٥ —

بنفس الاستخفاف قابلت الخطبة القصيرة التى ألقاها قائد البيكادورز أو حاملى الحراب أمام رئيس الفييستا (الاحتفال) ، وكذلك كل ما تلا هذا من تسليم الرئيس للرجل مفتاح الباب المؤدى الى حظيرة الثيران والموجود على يسار المنصة ، ثم تراجع الطابور الى حيث احتل كل مشترك فيه المركز الخاص به • المصارعون وقفوا خلف الحواجز الخشبية الواقية ، والبيكادورز خارج الحلبة عند بابهم ، والصبية تناثروا على محيط الدائرة يحضرون العباءات وأعلام الغرس « الباندريللاز » والحراب •

وسكتت الحركة فى الحلبة ، وكذلك خيم صمت الترقب على المدرجات والأرينا ، واضطر أى متحدث أن يخفض صوته وأن يدفعه الصمت المتزايد الى أن يكف عن الحديث ويسكت تماما •

وكالمفاجأة المتوقعة تصاعدت أصوات النفير ! وفتح باب الحظيرة واندفع الى الحلبة كالثور أسود مدكوك القوام

Looloo
www.dvd4arab.com

ما أن رأى الساحة خاوية والناس حولها فى احتشاد عظيم حتى توقف لبرهة .. لبرهة ! اذ ما كاد يلوح أحد المصارعين بعباءته من آخر الحلبة حتى بدا وكأن الثور ركبه ألف عفريت ، اذ اندفع لا يجرى وانما يثور أو يغلى أو ينفجر جاريا ، كالصاعقة منقضا ، كالقوة الغاشمة العمياء ، لا يقيم وزنا لشىء وليس له الا طريقة واحدة للتعبير عن قوة الحياة المحشودة داخله فى تضاغط هائل .. الا أن ينطح بقرنيه . وقرناه ليسا كقرنى ثيراننا المستأنسة بارزين الى الجانبين ، انهما قرنان رفيعان كأسياخ الحديد بارزان الى أمام على هيئة مسمارين مستقيمين ممتدين فى تواز ، وهو لا ينطح بهما أو برأسه أو باستعمال عضلات رقبته .. انه ينطح بكل جسده . يندفع ككتلة سوداء أسطوانية مدكوكة باللحم والعضلات الى الأمام فى سرعة هائلة ، وبكل جسده المندفع المحتشد يكتسح ما أمامه بقرنيه . ولا يهم أن يكون ما أمامه صخرا أو حديدا أو انسانا دقيقا حساسا بينه وبين هذه الحياة الشرسة الخرساء العمياء ملايين وملايين السنين من التطور والترقى .

ولكن هكذا أرادها الانسان .. أن يواجه هذه القوة الغاشمة التى لا ترحم ، ويحشد أمام العضلات المزدحمة الرهيبة كل مزايا عقله الانسانى من ذكاء وقدرة على

التصرف وقدرة على الخبث والخديعة أيضا ، ولكن كما أن العضلات المحتشدة وحدها لا تقتل .. الذى يقتل شىء أكثر بدائية من العضلات هو القرون ، فللثور قرونه ، وعلى الانسان هو الآخر أن يستعمل حين يبلغ الصراع أعلى مراحله ويصبح لابد أن يخلص أحدهما على الآخر ، أن يستعين بآلة قتل .. بسيف ، ليصبح السيف فى يده والقرن فى رأس الثور ، والنصر لمن يبادر بالطعنة .

انطلق الثور هائجا كزوبعة حيوانية هبت على الدائرة الرملية ، واندفعت تعصف بكل اتجاه عصفا بعث الرعب فى قلوب المشاهدين الذين تفصلهم عن الثور الهائج مسافات وحواجز ، ولكن الغضب الوحشى الذى كان يجتاح الثور ويوشك معه أن يحطم الأرض ويخرق السماء ، ولا يبقى أو يذر شيئا بينهما .. حالة كانت الحواجز والمسافات فيها لا يمكن أن تؤدى الى أى اطمئنان .

كتلة الحياة الهائجة السوداء تلك ، المركزة المضغوطة فى هذا الحجم الثورى المحدود ، هذا الجبار الطاغى الواثق بنفسه وقوته ثقة كقوته عمياء ، لا يتردد معها أن يقتحم أية قوة أمامه وأى كائن مهما كان . هذا المغرور الأحمق الذى يثير الرعب بكل خلجة من خلجاته ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ولا شيء على الاطلاق يدفعه هو الى الرعب أو حتى الخوف أو التردد .

هذا المبعوث الداكن يمثل كل ما فى الحياة من قوة وتعطش للعدوان والرغبة فى التحطيم والدم والتخريب . هذا الذى من فرط سرعته وتجبره لا يكاد يستقر فى مكان ، وينتقل من محيط الحلقة الى محيطها الآخر قبل أن تدرك أنه انتقل . هذا الموجود فى كل مكان ، الضيق بكل مكان ، المتحرك كالبرق كالضوء .. كالوباء فى كل اتجاه ، حركة بلا هدف الا الحركة نفسها ، ورغبة فى التخريب والتحطيم بلا هدف الا التحطيم ذاته ، والتغلب على كل ما يقف فى طريقه صديقا كان أو عدوا بلا هدف أو حكمة الا هدف التغلب ذاته . كتلة الحياة المركزة تركيز الجن فى القمقم ، المنطلقة المتفجـــرة بلا غاية أو هدف ، تجسد لنا ذلك المعنى الذى كثيرا ما تداولناه حتى اعتدناه .. تجسد لنا كلمة الوحش ، وترينا السبب والدوافع التى حدت بأجدادنا الأول أن يطلقوها على بعض أعدائهم من الحيوان .

هذه الظاهرة التى من فرط حيويتها تجعلك تؤمن أن الحياة ليست أرقى الجماد وأوجه بقدر ما هى شيء مرعب حقا ، التى تجعلك تعيد تأمل سطح الأرض وما عليها وتدرك أن الرعب شعور لا تحسه الا الكائنات الحية ،

وأيضا لا تثيره سوى هذه الكائنات نفسها ، لا شيء فى الطبيعة يخيف الا كائناتها الحية ، ولا شيء يخيف الا وهو أيضا يخاف . كلها ما عدا هذا الشيء الأسود الحى الذى اعتقد أنهم اختاروه للعبة لأنه الوحيد بين الكائنات الذى يخيف ولا يخاف .

ولكننى وان كنت قد ظللت أتابع بانتباه طاغ حركة الثور وحركة مصارعيه ، الا أننى لم أستطع من أول مرة أن أفهم . كنت أعتقد أن واحدا هو الذى عليه أن يصارع الثور من أول دقيقة الى أن يصرعه ، واذا بالموضوع أكثر تعقيدا وله هو الآخر قواعده وأصوله ونظامه .

فهذا التلويح الأول بالعباءة للثور ، ذلك الذى يجعله يتفجر جريا وبحثا عما يمزقه بقرنيه .. فى تلك المرحلة يراقب المصارع خصمه ليعرف كيف يجرى والسرعة التى يتوقف بها ويستدير ، ومبلغ شجاعته .. ومقيـــاس الشجاعة أن لا يتردد الثور فى مهاجمة كل ما يعترضه .

ثم تبدأ المرحلة الثانية مرحلة الفرس أو « سيوريت دى فاراس » ، حيث ينفخ فى النفير ويدخل راكبا الخيل « البكادورز » ، وحين يلمحهما الثور يندفع بلا تردد لمهاجمة أقرب الحصانين ، وتبلغ قوته حينئذ حد أن يستطيع رفع الحصان وراكبه والقاءه خارج الحلقة . وحين يندفع لمهاجمة الحصان ينتهز الفارس الفرصة

Looloo
www.dvd4arab.com

ويغرس فى كتف الثور حربة سميكة تصنع جرحا غائرا ينزف منه الدم ، والغرض من احداث الجرح هو اضعاف الثور والحد من قدرته الهائلة على المهاجمة والحركة .

بعد هذا تبدأ مرحلة الباندريللاس أو الأعلام ، حيث يقوم الباندريلوس أو غارس الأعلام برشق ثلاثة أزواج من الأعلام فى ظهر الثور .. مهمة لا تقل خطورة عن مصارعة الثور نفسها ! فعلى الراشق أن يستفز الثور الى درجة يقبل عليه بسرعة هائلة ، وفى نفس اللحظة التى يتحرك فيها الثور مهاجما ينطلق الفارس مسرعا على نفس الخط القادم منه الثور . وفى الومضة الأخيرة وهما يوشكان أن يلتقيا وتوشك قرون الثور على اختراق جسد الرجل ، فى آخر لحظة ينحرف الفارس بساقيه فقط عن الخط ، بينما يظل نصفه الأعلى ويداه الممسكتان بالعلمين فى نفس الاتجاه بحيث حين يمر الثور يرشق الفارس علميه ، وبعد هذا تبدأ مرحلة الصراع أو الميوليتا وهى المرحلة التى يحاور فيها المصارع الثور باستعمال العباءة الحمراء ، وفيها ايضا يمتاز المصارع على المصارع اذ هى المرحلة التى تبدى فيها ألوان وأشكال من الحيل والطرق .

وتنتهى تلك المرحلة حين يكون الصراع قد هد كيان الثور الى حد بعيد ، بحيث لم يعد يهاجم من تلقاء نفسه

ولابد من استفزازه كثيرا لدفعه للهجوم . حينئذ يستبدل المصارع العباءة بأخرى داكنة فى لون الدم ، ويستبدل العصاة المعدنية بسيف ، ويستعمل السيف وسيلة لفرد العباءة فى سلسلة محاورات أخرى ومداورات ، الى أن يحين الحين وبنفس الطريقة التى يغرس بها الباندريلوس علمه ، يغرز بها المصارع سيفه الى المقبض فى الجزء المقابل للقلب من ظهر الثور ، كل ما فى الأمر أن الغرس يتم والثور شبه واقف ، ولكن خطورتها على المصارع أن يستعمل يدا واحدة للطعن بينما الأخرى تمسك بالعباءة ، وانه يضطر للاقتراب كثيرا من جسد الثور بحيث أن أى خطأ صغير فى حساب المسافة يجعل منه غنيمة سهلة للقرون التى طال تعطشها الى الفتك .

Looloo
www.dvd4arab.com

— ٦ —

وهكذا لم أفق من استغراقى فى الانتباه ومحاولة التفهم الا على الميتادور الأول وهو يستفز الثور الذى كان قد تبلد وفقد الكثير من طاقته على الحركة والمهاجمة .. الثور الذى نزف كمية هائلة من الدم وأنهكه الجرى المجنون المتواصل وأصبح يلهث بصوت يبلغ ارتفاعه أنه كان يصلنا ونحن فى أماكننا بالمدرجات بعيدا عن الساحة .

الثور الذى أصبح مهما لوح أمامه بالعباءة الحمراء لايأبه كثيرا لها ، وبرغم تعبه كان الجبار لا يقوى على كبت رغبته المجنونة فى الاستجابة للتلويح الأحمر ، فما تكاد تتكون لديه أول دفعة قوة وأول قدرة على الحركة حتى ينطلق مهاجما ، ويعاود الكرة بضع مرات يكون قد استنفد خلالها دفعة طاقته فيعود يرغم على الوقوف . هذه الفترة عرفت فيما بعد أنها أنسب وقت « لقتل » الثور وهو فى وهنه ، وقبل أن يستريح بدرجة تكفى ليعاود الهجوم مرة أخرى .

وهكذا ظل الميتادور الأول يستفز الثور للحركة حتى

تحرك واقبل ناحية العبـاءة بأقصى ما فى قدرته من سرعة . ورغم أنى رأيت كل شىء الا أنى لم أدر ما حدث بدقة ، ولا يكفى أن ترى لكى تدرك ! أقبل الثور مسرعا وحدثت بضعة أشياء فى وقت واحد .. أبعد الميتادور العباءة وتنحى عن طريق القـرون والرأس بنصـفه الأسفل ، ومن سرعة الحركة وخفتها لم ألمح السيف وهو يغمد ، وحين انتهت الحركة رأيت مقبضه فقط هو البادى منه الى يسار السلسلة الفقرية .

ويا للبساطة ! ما كادت تمضى ثانية واحـدة حتى وجدت الثور كالحائط القديم المائل يسقط هكذا فجأة ، وكأنه ممثل مسرح يؤدى دور الموت ، وتحسبه لا يجيد التمثيل للسرعة التى يسقط بها نفسه ويموت . حقيقة وواقع يحدثان أمامك ولا تكاد تملك القدرة على تصديقها ، لا يمكنك أبدا أن تصدق أن نفس هذا الكائن الذى كان يثير بحركته وجبروته الرعب حتى فى الهواء وذرات الحصى ، يرقد بعد أقل من عشر دقائق فى نفس الساحة التى كان يحيلها بركانا من الحياة والحركة جثة يعف عليها الذباب . نفس الجسد بنفس العضلات والقرون ، بنفس القدرة والطاقة وقد أصبح فاقدا كل القـدرة وانتهت حركته الى الأبد .. ولماذا ؟ لأن قطعة معدن صـغيرة دخلت جوفه فاختل نظام الحياة داخله وتوقف . أجل

Looloo
www.dvd4arab.com
(رجال وثيران)

نظام الحياة • انه لشيء مضحك حقا أن تعرف أن تلك الطاقة الحيوية الهائلة التى كانت تبدو على هيئة فوضى كاملة تريد أن تعيث فسادا فى كل شيء وتخل نظام كل شيء وتحيل كل شيء الى مزق ، هذه الطاقة الحيوية المتفجرة لتشيع الفوضى فى كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة دقيق ، لولاه ما استطاع أن يحرك ذيلا أو ينش ذبابة أو يأخذ شهيقا •• نظام يكفى أن تخدشه بقطعة معدن أو دبوس لكى — من شدة اتقانه — يختل وينتهى كنظام حياة نبيدأ يعمل فيه نظام آخر •• نظام الموت والتحلل والفناء •

ولابد أننا نكره هذا النظام الآخر — نظام الموت — الى درجة مقيتة •• الى درجة أننا نأسى لو حل حتى بأعدائنا • فما تمنيت شيئا وأنا أرى الثور يعصف هادرا ممزقا غارسا قرنيه بوحشية فى كل شيء ، ما تمنيت أكثر من أن ينجح الميتادور فى الاجهاز عليه ويريحنا ويريح الدنيا منه • ولكن •• ولكننى حين رأيت السيف مغمدا الى حد مقبضه فى صدر الثور ، ثم رأيته على أثر الطعنة المصوبة بخبرة ودقة وشجاعة يسقط ميتا رافعا ساقيه ، شعرت رغما عنى — ولماذا أختار هذا الشعور لأقول رغما عنى ؟ ومشاعرنا دائما لا تتحرك بارادتنا وانما رغما عنا — شعرت بأسى ، وأحسست أنا الواحد

من الثلاثين ألفا الذين كان يشيع فى قلوبهم الرعب من دقائق ، أحسست أنى أشفق عليه شفقة حقيقية صادقة ، وأنه صعب على • وليس فى قدرتى أن أجد لهذا أوهى تفسير ، فليفسره علماء النفس اذا استطاعوا! • وحتى لم أتبين بالضبط من الميتادور الذى كان يصارعه والذى قتله ؟ فكلهم يرتدون نفس الزى ولهم تقريبا نفس القامة • لم أعرفه الا حين تهاوى الثور وسط حلقة الميتادورات التى تلتف حوله فى تلك اللحظات وكأنما تحاصره حتى تتأكد من خموده أنفاسه ، مخافة أن يقدم فى لحظة الموت واليأس الأخيرة على قتل الميتادور الذى صرعه • من وسط هذه الحلقة وجدت واحدا منهم يتلفت وينحنى ردا على تصفيق الجماهير الذى تعالى •• ثم حين تأتى الأحصنة الأربعة المخصصة لجر الثور الميت وتخرجه من الحلقة مشيعا بالتصفيق الشديد والهتاف ، واخراج المناديل والتلويح بها علامة الاستحسان الكبير للطريقة والشجاعة والشرف التى تمت بها المصارعة ، وللميتة المتقنة التى صرع بها الثور بغير عذاب أو ألم • حين حدث هذا وجدت الميتادور يدور حول الحلقة يرد على تحيات الجمهور ، وخلفه اثنان من زملائه يجمعان الزهور والسيجار والسجائر والشيكولاتة التى تلقى له اعجابا وتقديرا •

Looloo
www.dvd4arab.com

وظل الميتادور يجرى بضعة أمتار ويتوقف ليتلقى تحية الجزء المقابل من محيط الدائرة ، ثم يعود يجرى بضعة أمتار ليختصر الزمن ويتلقى تحية الجزء التالى ، حتى وصل الى ذلك الجزء من الدائرة الرملية الذى يواجه مقاعدنا • وحين رفع رأسه بعد انحناة التحية لم أكد أصدق عينى •• كان هو بعينه صديقى الذى منذ أن تاه عنى مع الميتادورات فى الساحة والقلق يجتاحنى فى صمت من أجله • ودون أن أحس وجدت نفسى أصفق بحماس زائد وكأنى ألتاه بعد غيبة طويلة فى أدغال خطرة مجهولة • وأتمنى لو كان باستطاعتى أن أقفز اليه وأعانقه وأضمه — ذلك الابن الضال — الى صدرى ، وأتأكد بنفسى أنه حقيقة خرج سليما ومعافى •• قبل أن ينفجر احساسى بخيلاء الأب لأنه لم يخرج معافى فقط ، انما خرج بطلا أيضا •

وما كان أروعه وانا أسمعه يلقى الى الميتادور خلفه بأمر هامس ولكن فى لهجة حاسمة •• لهجة قائد لا يزال بريق انتصاره يخطف البصر • كان وجهه القمحى قد ابيض تماما ، ولكن الأمر يختلط عليك هذه المرة وتمنع نفسك أن تجزم ان كان هذا البياض شحوبا شديدا سببه تعاظم الرهبة أم تعاظم الفرحة ، أم الاثنان معا •

وألقى جارى الأسبانى الى الساحة — خلافا للقانون

— بالمخدة الجلدية التى تستأجر بقروش لتلين من صلابة الأسمنت المسلح ، وانتزعت جارتى عقدا من الفل كان حول رقبتها وقبلته وألقته الى الساحة ، ومن بين مئات الأشياء التى أليقت اليه والتى كان يترك مهمة جمعها لمساعديه وجدته يلحظ صاحبة العقد الفل ، وبعد أن كان قد استدار ليكمل الدورة وقف وانحنى والتقط الأزهار والجزء الذى انفرط منها وقبلها ورفع يده مشيرا بها الى الفتاة • وهاج الجمهور فى المدرجات وخاصة فى ذلك الجزء الذى يجاورنا ، وانطلقت صفافير وصيحات هتاف واستحسان بينما الأبصار كلها مضت تحاول أن تشق طريقها بصعوبة بين الأجساد •• مئات الأجساد المتشابهة المتلاصقة لتستطيع أن تميز الفتاة التى اختارها الميتادور ليرد تحيتها •

وكنت أسعد الجميع حظا وليس على اكى أراها الا أن التفت •

والتفت •

كانت الفتاة قد تجمدت فى مكانها تماما حتى خيل الى أنها كفت عن التنفس ، وبعدما أرسل قلبها كل ما استطاع ارساله من الدم الى وجهها حتى كادت خدودها تنزف من تلقاء نفسها ، توقف عن النبض • وكانت عيناها تنظران الى أسفل مفتوحتين ، ولكن ••

Looloo
www.dvd4arab.com

وكأن غطاء داخليا أغلقهما وسد أذنيها وقطع كل صلة بين حواسها وبين هدير البحر البشرى الصاخب المحيط بها .

وكنت أعتقد أنها مفاجأة لن تلبث أن تزول ، ولكن .. حتى بعد أن انتهى الميتادور من تلقى التحيات وغادر الساحة .. حتى بعد أن انتهت نظرات الاستطلاع الثانية التى تريد أن تعيد تفحصها .. حتى بعد أن كاد الناس ينسون الواقعة ويندمجون فى المصارعة التالية التى كانت قد بدأت ، ظلت هى بنفس وضعها ولونها وتوقف حركتها كأن الحادثة قد حنطتها على آخر وضع كانت فيه ، وهبطت عليها فترينة زجاجية عزلتها عن الدنيا .

أما جارى الأسبانى الآخر فقد كان ببرطم ويحادث جيرانه ويحتج ، ولم أعرف ما الذى كان يثيره ولكنى استطعت أن أخمن أن الطريقة التى تم بها تبادل الاعجاب لم تخضع تماما للقواعد والأصول ، وما لبث أن أخرج كتاب مصارعة الثيران وراح يقرأ ، وتولى ترجمته سائح أمريكى لا أعرف ما الذى جعله يجيد الأسبانية الا أن يكون أسبانى الجدود ، راح جارى يقول بصوته الجهورى المزعج : لا يصح للميتادور أن يبدى اعجابه بهذه الطريقة .. ان له الحق فقط فى اهداء عملية قتله

للثور الى الحسناء التى يختارها ، ولكن هذا لا يصح الا بعد مرحلة الميوليتا حين تحين لحظة القتل ، اذ له حينئذ « وأخذ يقرأ من الكتاب » أن يقف فى مواجهة السيدة ، ويرفع قبضته بالتحية ، ثم يستدير الى الثور ويبدأ عمله .

ولكن أسبانيا آخر تصدى له باعتراض ، وبدأ نقاش فنى على مستوى عال لم يلبث أن خمد ، ليعود يظهر على هيئة همس متقطع مصر .. حين دخل الثور الثانى الى الحلبة .

وعجبت حين صدر من الجمهور على أثر دخوله مواء . قطع الجار المناقشة ليفسر لنا سببه ، اذ يبدو أن الجمهور استصغر سن الثور وحجمه . أن أصول اللعبة تحتم أن يكون الثور « التورو » بالأسبانية (ومنها ترى أنها قريبة جدا من الاسم العربى ، بل أن الأسبان أنفسهم يقولون أن العرب هم الذين ابتكروا مصارعة الثيران وعنهم أخذها الأسبان ، وهم أيضا الذين وضعوا لها تقاليدها الأولى وأصولها ، ولا تزال بعض التعبيرات العربية باقية الى الآن مثل « أوليه » ، وهى نفس كلمة الله التى نقولها دهشة أو اعجابا) تحتم أن يكون الثور من سلالة الثيران المتوحشة المسماة « أورو » ، حيث يختار أفرادها بعناية ويقدم لها غذاء خاص وتربى من أجل المصارعة فقط ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ويجب ألا يقل عمر الثور منها عن خمسة أعوام • وقد بدا ذلك الثور الذى دخل أقل من ذلك أو أنه ليس بالقوة المطلوبة ، ومن هنا جاء مواء الاحتجاج • ولكن الثور نفسه ما لبث أن تولى الرد على كل هذه الاعتراضات ، فما أن رأى تلويحة « الكابا » الحمراء من بعيد حتى انقلب الى زوبعة وحشية أسكتت كل الأصوات •

وهذه المرة حين دخل الفارس ووجه الطعنة الى الثور المشغول بدفع قرونه فى بطن الحصان ، ماء الجمهور مرة أخرى اعتقادا منه أن الطعنة طالت وأن فى هذا اضعافا للثور أكثر من اللازم ، والجمهور أبدا لا يريد هذا • ان الجمهور فى مصارعة الثيران ليس مجرد متفرج على اللعبة •• ان هناك رئيسا للفيستا أو الاحتفال يتولى الحكم والفصل ، ولكن الجمهور دائما يتدخل ، أولا مع الثور يحتج اذا كان ضعيفا ، وأحيانا يمضى فى احتجاجه مطالبا بتغيير الثور بأقوى منه •انه يريد أن يظفر بأقصى متعة ، وهو لا يفرق حينئذ بين الطرف الانسانى أو الحيوانى فى هذه اللعبة • كل ما يهمه أن يكون الطرفان قويين وأن يكونا أيضا متعادلى القوة بحيث لا يحظى أحدهما بانتصار سهل على الآخر ، وبحيث تطول المعركة وتصعب ، وبحيث يحشد كل طرف لها أقصى ما لديه من طاقة وفن • ومصارعة الثيران قد تبدو

للأجنبى لعبة يقتل فيها الرجل الثور أو تحدث الكارثة ويقتل الثور الرجل ، ولكن الجمهور الأسبانى لا يأخذها هكذا أبدا ، انها عنده مباراة بكل ما تملكه الكلمة من معنى •• مباراة بين القوة الحيوانية الوحشية الغاشمة من ناحية ، والذكاء الانسانى والرشاقة وسرعة الادراك والفطنة وسعة الحيلة من ناحية أخرى •• مباراة بين شجاعة الحيوان اللاواعية وشجاعة الانسان الواعية •• مباراة بين الحياة فى بدائيتها القوية وبينها فى رقيها الذى أضعف قدرتها العضلية وقوى قدراتها العقلية ، باختصار مباراة بين العضل والعقل •

ولهذا فعلى عكس ما نتصور مصارعى الثيران هم ليسوا ضخام الأجسام أو رياضيى القوام • ان كل المطلوب من أجسادهم أن تكون سريعة الحركة سريعة الاستجابة لاشارات العقل ، ولهذا تجد معظمهم نحيفا هشا يبدو كالشاعر أو عازف البيانو ، رقيقا كالنسمة ، ولكنه لابد أن يكون شجاعا • والشجاعة كلمة لا يمكن تحديد معناها بسهولة • ان الشجاعة لدى الثيران أن لا تتردد فى مهاجمة كل ما يقع تحت بصرها سواء أكانت ندا له أم لم تكن • سواء أقضى عليها أم قضت عليه ، وتلك هى الشجاعة العمياء اللاواعية •• الشجاعة الجاهلة • شجاعة الانسان ، والمتادور ... من نوع

www.dvd4arab.com

آخر ، فهو يخاف الثور مثلما يخافه أى متفرج ، بل ربما أكثر • ولكنه مطلوب منه ألا يجعل هذا الخوف يتحكم فيه ! المطلوب أن يتحكم هو فى الخوف بحيث يستغله كمولد للارادة والذكاء والقدرة على التصرف ، بحيث يستعمله ليشحذ كل حواسه ويحيل جسده الى مركز رادارى حساس باستطاعته أن يلتقط أوهى البوادر ويتصرف تجاهها أسلم التصرفات • فالخطورة فى مصارعة الثيران تأتى مثلا من تأخر فى تلقى بادرة ، أو تلقيها فى وقت مناسب •• ولكن الرد عليها رد ليس هو المطلوب • ان أى خطأ تافه فى هذه الحالة قد يؤدى الى مصرعه • انها امتحان خطير للانتباه والقدرة على وزن الاحتمالات بميزان دقيق ، وموهبة اختيار أفضلها •

والناس لا يولدون هكذا • ان هذه الخصال لابد لها من تدريب شاق طويل ، ومع هذا فهو تدريب لا نهاية له ولا يمكن أن تصل فيه الى درجة تصبح بعدها فى أمان مطلق • فالمصارعة سلسلة مواقف يدركها المصارع ويتصرف ازاءها ، والتدريب الطويل لا يفعل أكثر من أن ينمى لدى المصارع القدرة على ضبط أعصابه مثلا أمام الموقف وعلى ادارك نوعه ، وعلى السرعة فى ايجاد الحل • ان التدريب لا ينمى سوى القواعد العامة ،

أما حلول كل موقف والتصرف ازاءه ببراعة فصحيح أن التدريب الطويل يجعلك تلم بالكثير منها ، ولكن المواقف فى المصارعة نادرا ما تتشابه ، بحيث انك فى كل جزء من الثانية تجد نفسك فى موقف جديد لابد أن تحله حلا جديدا نابعا من الموقف ذاته • لهذا فالمصارع يظل مهما بلغت شهرته وصيته محل اختبار فى كل مرة تحتويه الساحة مع ثور •• اختبار هو معرض فيه للفشل أو النجاح كما لو كان مبتدئا • ولهذا أيضا لا يوجد « كبير » فى الميتادورات ، كلهم صغار ! واللحظة التى يكبر فيها أحدهم هى فقط اللحظة التى ينتصر فيها على هذا الثور أو ذاك ، لحظة ينتهى كبره بانتهائها • حتى اذا ما دخل مباراة ثانية دخلها صغيرا من جديد ، احتمالات نجاحه تتساوى مع احتمالات فشله ! ولابد له ، مثله مثل الداخل للمرة الأولى أن يتوقف قبل أن يدخل الساحة ويرسم ــ مبتهلا ــ علامة الصليب •

Looloo
www.dvd4arab.com

— ٧ —

ارتفع المواء يلعن الفارس الذى كان لا يزال يدفع حربته أكثر وأكثر داخل ظهر الثور ويطالب بانهاء عملية الطعن ، حتى لا تقل قوة الثور عما هى عليه كثيرا وحتى يظل كامل السرعة والهياج • فكلما ظل هكذا أصبحت مهمة الميتادور شاقة ، وتطلب الأمر منه أن يعتصر نفسه ليستخرج آخر قطرات فنه وقدراته •

واحساس غريب ذلك الذى يتملك الجمهور فى تلك اللحظات القصار التى تبدو طويلة كالساعات ، اللحظات التى يستغرق فيها الثور فى نطح الحصان والتى فى أثنائها يغرس الفارس وبكل قواه الحربة فى ظهره • لحظات لا يسكت فيها الجمهور أبدا وكذلك لا يصدر ضجة ، ولكن من بينه •• ومن أفواه مجهولة وكأنها ليست أفواهه تظل تصدر طوال تلك اللحظات أصوات مكتومة فيها قلق وفيها ألم وفيها معاناة • فيها احساس بالرفض وصرخات استغاثة لا تنبعث •• بينما الأجساد جميعها وبلا استثناء تتململ وتتحرك فى أمكنتها ضيقا

ونفاد صبر • وبينا سيدات كثيرات يشحن بوجوههن بعيدا عن المشهد تشترك عيون بقية السيدات مع الرجال فى صب نظرات حنق وضيق واحتقار فوق الفارس الطاعن ولا تنتهى هذه النظرات أو معانيها حتى بعد أن يكف الرجل عن فعلته ، بل تظل الأصوات بلغتها المبهمة المكتومة تزجره وتطلب منه بكل ما تملك من اشمئزاز أن يغادر الدائرة الرملية الى خارج الحلقة ، مشيعا بكل ما تملك النظرات من استهجان • والرجل لا ذنب له ، انه كممثل دور الشرير فى الرواية الذى يتحمل بلا جريرة — وزر دوره ، ودوره فى المباراة لا يحسد عليه ! ففى مهرجان البطولة هذا •• بطولة الثيران وشجاعتها من ناحية وبطولة الميتادورات وهى تقاتل الثيران وتحاربها وتحاورها وتصرعها من ناحية أخرى ، يقتصر دوره هو على الاختباء داخل دروعه والتحصن فوق حصانه ، وطعن الثور والاصرار على طعنه حتى تنهد قواه •

ومع هذا فهو يظل بعد خروجه يقطع الممر الفاصل بين الساحة والجمهور والحربة فى يمناه ، وقبعته الخطيرة فوق رأسه بينما هو جالس فى عظمة فوق سرج الحصان المنطوح العجوز « حثالة الأحصنة التى تختار لهذه المهمة حتى اذا ما نفقت لا تكون الخسارة فيها جسيمة » •• يقطع الممر فى عظمة دونما عظمة ناطور ،

www.dvd4arab.com

ونظراته التى يواجه بها نظرات الجمهور فى تحد وشموخ تدل على أن رأيه فى دوره يختلف تماما عن رأى الناس فيه ، معتقدا لابد أنه المتبارى الأساسى ، وهو أول من يأخذ « حموة الموسى » ويلتقى بالثور وهو فى عنفوان قواه ، معرضا نفسه رغم كل دروعه لأخطار جمة • كم يبدو شبهه فى نظراته وتصوراته تلك قريبا — وبالذات ونحن فى أسبانيا — من الخالد الذكر الدون كيشوت أو كيخوت كما ينطقونها هناك •

هذا الاحساس الغريب التى يتملك الجمهور ساعة الطعن ليس تافه المضمون أبدا • اذ كيف يتململ الجمهور ويحتج لطعن ثور هائج كان يلقى الرعب فى قلبه ، وكان يتمنى منذ اللحظات لو تتفتح الأرض عن قوة تستطيع مواجهته وكبح جماحه ؟ ان معناه هنا ان الغاية فى نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة ، وأن يحتمى فارس بالدروع ليطعن الثور المتوحش القاتك فى ظهره وسيلة ليست شريفة من وسائل الحرب ، والوسيلة فى الحرب — فى اى حرب — لا تقل اهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها • انه احتجاج ضد الخداع والجبن ! ان للجمهور دورا آخر فى المباراة ، دورا مهما •• أن يحافظ على « القيم » ويحرسها • ليس مهما فى نظره لمن يكون النصر ، المهم دائما وأولا كيف يأتى الانتصار •

والدليل هو ما حدث لهذا الثور نفسه حين مضت أدوار المصارعة التى وضح من خلالها أن الميتادور ليس بذى باع طويل فى اللعبة • وحين جاءت اللحظة التى عليه أن يصرع الثور فيها وصوب اليه الطعنة الأولى ؛ لم يغمد السيف الى آخره • ومعنى هذا أنه لم يحسن تقدير المسافة ، أو صوب الطعنة وهو أبعد مما يجب خوفا على نفسه • وقابل الجمهور فشله الأول بالصمت مؤثرا أن يعطيه فرصة أخرى ، وكان عليه أن يستخرج السيف من مكانه بواسطة سيف آخر له خطاف فى نهايته ويعيد الكرة • وهذه المرة أيضا لم ينفذ الى الصدر سوى نصف السيف وبقى نصفه الآخر مع المقبض خارجا • وماء الجمهور ولكنه آثر أيضا أن يطيل فى صبره • وطعن الميتادور الطعنة الثالثة وغاص السيف هذه المرة الى المقبض ، وخرج الميتادورات يحيطون بالثور على هيئة حلقة فى انتظار سقوطه وموته ، ولكنه لم يسقط اذ يبدو أن الطعنة وان كانت قد اخترقت الصدر الا أنها لم تصب القلب أو أحد الأوعية الكبرى • وبدلا من هذا انطلق الثور فجأة مهاجما مندفعا فى كل اتجاه باحثا عما يصوب اليه قرنيه ويطعنه •

واهتزت الأرينا بنصفيق حاد ، وعمتها موجة من الحماس الشديد للثور الذى رفض باصرار أن يموت •

Looloo
www.dvd4arab.com

وحاول الميتادور أن يستخرج السيف الغائب الى المقبض ليعود يطعنه طعنة رابعة ولكن محاولته قوبلت بمواء مستنكر عريض وصيحات غضب وصفير جعلته يعدل عنها .. اذ الجمهور حارس القيم وحاميها ، لم يعد يهمه أن يصرع الميتادور الثور بطريقة فنية ، أصبح المهم لديه أن الثور لابد سيتألم ألما شديدا نتيجة للطعنات الثلاث الفاشلة ، وليس من العدل أن يظل بطل كهذا يتألم ، ولابد من اراحته فورا وتخليصه من آله . بمعنى آخر كان على الميتادور أن يقتل الثور فى الحال باستعمال طريقة « الديسكابيلو » ، وذلك بطعنه فى رقبته بسيف خاص أو ببساطة أشد بذبحه ، ولكنه ذبح بلا تكتيف أو اشتراك أحد ، ذبحه وهو حى واقف شديد الخطر . وتتم العملية بأن يفرد الميتادور عباءته الحمراء فوق الأرض كى ينجذب اليها بصر الثور وانتباهه ، ويستغل المصارع انشغال الثور بمهاجمتها ليصوب الى رقبته طعناته بواسطة السيف الخاص .. وهى عملية بشعة ما فى ذلك شك ، أكثر بشاعة من عملية الطعن التى يقوم بها الميتادور والتى تثير تقزز الجمهور . فهنا لا يعود الأمر مباراة بين طرفين لكل منهما مؤهلات قوى مختلفة ، هنا الأمر عملية قتل واضحة ، الثور فيها منهك خائر القوى مطعون فى صدره ، خطره ينزف ويلهث .. ولكن مع هذا

لم يتنازل عن جرأته واصراره على الحرب والمهاجمة والاستجابة لكل ما يثيره حتى وهو فى أتعس حالاته ، ولهذا فهو ينقض على العباءة مركزا فيها همه بينما من وراء ظهره وبالخديعة يذبح ذبحا لا فن فيه ولا مهارة الا مهارة الجزر والجزارين .

عملية قتل تجعل الجماهير تفيق وتختفى من أمامها العناوين البراقة والحجب وكل ما يجعل من مصارعة الثيران رياضة تجذب وتثير الانفعال ، ويبدو الأمر فى النهاية على حقيقته العارية البشعة .. انه ليس سوى عملية قتل ، الانسان فيها هو الذى يتولى ذبح الثور ويفعل هذا على مشهد من ثلاثين ألف متفرج . عملية ترعاها الدولة وتنظمها وتدعو لها فى كل أنحاء العالم ليأتى السياح آلافا وأفواجا وينفقوا الاسترلينى والدولار وتمتلىء خزائن البنوك الخاوية ، وفى أسبانيا بنوك كثيرة أكثر من البنوك فى أى مكان آخر من العالم ، ومع هذا فهى على حسب احصاءات هيئة الأمم المتحدة أفقر بلاد أوربا . آلاف السياح وملايين الاسترلينى والدولارات التى تضل لأمر ما طريقها الى جيوب الفقراء ، وتتكدس فى خزائن البنوك ولدى أصحاب البنوك وزبائنها وروادها ، ويحدث هذا كله بثمن أن يقوم انسان يرتدى ملابس مزركشة و[illegible]

Looloo
www.dvd4arab.com

واحتفال وموسيقى بذبح ثور واسالة دمائه ، ذبحا مؤلما أشد الألم يتأوه له الرجال ويكاد يغمى على النساء ! الشاب الذى كان يجلس أمامى أخفى رأسه كالطفل المذعور بين ركبتيه ، والأسبانى جارى انهمك فى مسح عرقه الذى مضى ينزف بغزارة ، وجارتى الحسناء أخرجها المشهد من كل تصلبها الخجل وجمودها .. ومن الحمرة القانية شحب وجهها حتى أصبح فى صفرة العلم الأسبانى .. وبدأت أسنانها تصطك ، بينا سيدة سمينة أمامى بصفين مضت تحملق فى المشهد وهى فى حالة استسلام كامل ، بدا هذا واضحا من طريقة مضغها للبانة حيث لم تتوقف عن المضغ ، وكلما وجهت الطعنة الى الثور ونخ بنصفه الأمامى ألما ، وتفجر الدم يبلل الرمال ويصنع منها طين الدم البنى ، ويلوث بعضه ملابس الميتادور الأنيقة ، أطالت الفترة بين مضغة اللبانة والمضغة التالية ، وبينما سيد مهذب جدا فى نفس صفها يبتسم وعيناه لا تتحولان عن المشهد ، وبالأصح كانت ملامحه قد توقفت على هيئة وجه مبتسم استغرقته المشاهدة وشغلته الى درجة لم يجد لديه وقتا أو بالا لمجرد تغيير ملامحه .

مشهد لا يحرك الا الألم البشع ! يحركه استنكارا وضيقا واحتجاجا عند أناس ، وعند أناس آخرين يحرك

المتعة بالألم .. أدنأ لأحاسيس وأكثرها خسة وشذوذا .. ذلك الاستعذاب للألم والرغبة فى اطالته والاستزادة منه . وكل هذا بنقود كثيرة وبدعاية واحتفالات وتهليل ، والشهيد فى النهاية ثور ، ذلك الثور مثلا .. ذاك الذى لم يلبث تحت وقع الطعنات الكثيرة أن ارتمى على الأرض مجهدا وحسبوا أنه مات ، ولكنه ما لبث أن وقف مرة أخرى وكأنه بسبعة أرواح ، وحاصروه وبدأ الميتادور يلوح بعباءته استعدادا لجولة طعن أخرى . وبدأ الجمهور يتأوه مقدما وبصوت عال مسموع ، ولكن الثور لم يلبث أن تهاوى على جانبه لآخر مرة ، وبقى فى مكانه صريعا لا يتحرك .

Looloo
www.dvd4arab.com

— ٨ —

ومن ساحة صامتة كئيبة مليئة بالخـزى والتقـزز والندم والاشمئزاز ، وكأنما الجميع حتى المشاهدين قد ساهموا منذ هنيهة في ارتكاب جريمة خلقية شـاذة ، انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذى ذبح الثور ، فلا انتظار لتحية هذه المرة أو زهو • حسبه أنه سيخرج قبل أن يفطن اليه الجمهور وينفجر قاذفا اياه بكل ما فى متناوله • كان الجمهور لا يزال يحيا مع الثور المقتول وكأنما يقيم له جنازة تلقائية سريعة يتذاكر فيها كل ما أبداه خلال المصارعة من ألوان القوة ، وبطـريقته الخاصة •• الصمت •• يؤبنه •

وجاءت الخيول الأربعة وأحكم وضع الحبـل على قرونه وبدأت تجره خارج الساحة ، ومن أعماق الصمت المخيم اندفع فجأة مواء ، هذه المرة عميـق وحقيقى لا سخرية فيه ولا صفير ، وظل يشيع جثة الثور حتى غابت بخيولها خارج الساحة • كان المواء استهجانا لمقتله •• الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها الجمهور فى وقت

كهذا أن يبدى سخطه ويصدر حكمه ، الحكم بانتصار الثور الميت على الميتادور الحى ، طريقة خيل الى من صراحتها وصرامتها وقسوتها ان الميتادور لحظتها لابد فضل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا التمجيد على أن يكون هو الحى بكل ذلك الاستهجان • وأى انسان مكانه كان رغما عنه يتمنى أن يصبح الميت المنتصر ولا يبقى للحظة واحدة ذلك الحى المهزوم •

ان الهزيمة علنا وأمام الملأ هكذا وبحـكم جماعى يصدره الآلاف مرة واحدة ومباشرة ، الهزيمـة التى لا تقبل جدلا ولا تمـلك أن تبررها حتى لنفسـك ، وما يصاحبها من ذل وخزى أكثر ايلاما من أى شىء آخر على سطح الأرض •• أكثر ايلاما من الموت نفسه • ان فقد الحياة أهون بكثير من الحياة مع معاناتها •

ويا للمصارع المسكين ! انه اذا لزم جانب الحرص على نفسه ليخرج من المباراة سليما معافى لم يرحمه الناس ، واذا أراد ارضاء الناس واقترب كثيرا من الخطر لن ترحمه قرون الثور وأظلافه • للصدف جاءت وقفة الميتادور المهزوم وراء العارضة الخشبية القريبة منى ، ولمحته يمسك بأعلى العارضة وكأنما يعلق أو يشـنق نفسه منها ، بينما جسده قد تراخى وتثنى ورأسه شبه متدل على صدره • كان يبدو كالمصلوب سواء بسواء ،

Looloo
www.dvd4arab.com

طعنة قرون أقسى من قرون الثور وأمر ، قرون جمهور غاضب أصابته فى الصميم وجعلته يتألم ، ليس ألم المجروح فلم يكن هناك جرح أو دم ولكنه ألم أشد وأعتى .. ألم الهزيمة !

كان ما يحدث وما أراه جديدا على تماما مروعا ، لكأنى فى عالم مسحور وبين قوم ذوى قيم وحياة غريبة على عالمنا تماما ، أو على الأقل غريبة على بلادنا فى شرق البحر الأبيض وجنوبه .

ان الحياة هنا لها معنى مختلف اختلافا جذريا . لقد ربينا على أن أصح وأهم ما يمكننا عمله هو أن نحيا ونظل نقاوم الظروف والأعداء كى نبقى على قيد الحياة .

ولعل الأمر كذلك فى أسبانيا نفسها وفى كل الدنيا ، ولكن هنا فى هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالما آخر مختلفا عن العالم فى الخارج وفى كل مكان . عالم الهدف فيه ليس أن تحيا أو تحافظ على وجودك ، الهدف أن تنتصر بحيث تحل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت ، وبحيث تختلف كل المقاييس تبعا لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود . وكأن الناس هنا لم يستطيعوا أن يغيروا هذه المقاييس فى حياتهم العادية فابتكروا مصارعة الثيران أو تبنوها وجعلوا لها ساحة ، و « أرينا » ومتحفا وعالما كاملا

يدخلونه ليحيوا ولو لبضع ساعات كل أسبوع بهذه المثل والقيم ، وبدلا من أن تقرأ كتابا يروى لك قصة بطل لا يهمه الموت أو الحياة بقدر ما يهمه الهزيمة أو الانتصار ، وبدلا من أن تدخل دارا للسينما أو مسرحا تطفأ فيه الأنوار وتعيش أو تقنع نفسك أنك تركت عالمك الملىء بالضعف والانهيار وملايين الناس المتشبثين بحياتهم — وأنت منهم — تشبث المستميت ، وأصبحت فى عالم آخر عالم مخلوق من أناس أبطال لا يترددون أمام أى صراع أو خطر ، يخوضونه وينتصرون فيه أو يهلكون دونه . بدلا من هذا أوجد الأسبان لأنفسهم هذا المسرح الحى الذى يضم كائنات من الأحياء . مسرحا لا يخدعونك بتمثيل الصراع فيه ولكنك تجد نفسك أمام صراع حقيقى لا تمثيل فيه ولا تمويه . الجماهير المطحونة المهزومة فى حياتها اليومية ، المتمسكة بالحياة رغم تفاهتها تمسكا مستميتا لا يخلصها منها سوى قوة قاهرة جبارة كالموت ، هذه الجماهير تدخل الساحة لتشهد أناسا يستخفون بالحياة الى درجة السفه .. الى درجة البطولة فى سبيل أن ينتصروا . ولهذا فالمصارع لا ينظرون اليه نظرة تمجيد منفصلة عنهم ، ان كلا منهم يخوض الصراع المخيف من خلاله ! ويرسل كل منهم خيطا من ذات نفسه وروحه لتتجمع آلافا وتلتقى عند

Looloo
www.dvd4arab.com

المصارع ، وبنفسه وبها يخوض المعركة .. يخوضها أساسا لحسابهم وكأنهم أنابوه عنهم ليقوم بالعمل البطولى العاجزين هم عن القيام به . ولهذا أيضا فما أشد نقمتهم عليه اذا لم يقم بعمله كبطل ، اذا عمل حسابا لكيانه المستقل ، ومحافظة عليه تهاون فى القيام بالبطولة التى وكلوا اليه أمرها .

انهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة شاب يصارع ثورا فى حدود أن يظل حيا ولو لم يصرعه ، انهم جاءوا لينيبوا عنهم بطلا .. بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها . ولهذا فمتعتهم الكبرى هى حين يحدق الخطر بالمصارع ، وفرحتهم الغامرة ليست هى أن ينقذ نفسه بتجنب المأزق الخطر ، ولكن أن يضع نفسه فى المأزق الخطر ويخرج منه سالما ، أن ينتصر على الخطر بمواجهته وليس بتجنبه .. فهم فى حياتهم يفعلون هذا ، هم دائما يتجنبون الخطر ويهربون من المأزق مؤثرين أن يوصفوا بكلمة الجبن أو الرعونة مع النجاة أو البقاء أحياء ، وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون بفعله ولا يستطيعون ، أن يوصفوا بالبطولة ولو كان فيها مواجهة متعمدة للخطر وتعرض أكيد للهلاك .

ولهذا فالمصارع فى أسبانيا ليس مجرد نجم رياضى ، انه أولا وأساسا بطل شعبى وأداة الشعب للبطولة ،

وكما لا يمكن أن تقبل الناس من بطلها السياسى أن يساوم أو يهادن فهى أيضا لا تقبل أبدا من مصارعها أن يقوم بعمل ليس فيه بطولة . يجب أن يرتدى أجمل الثياب ويبدى اعجابه علانية باجمل السيدات وان يتصرف دائما وأبدا كبطل . هذه الوقفة التى ينفخ فيها صدره ويقذف برأسه الى الخلف رافعا ذقنه فى ترفع وكبرياء مستفزا الثور ، هذه الوقفة التقليدية لم تأت عبثا .. انها وقفة البطل . هذه المرارة القاتلة اذا هزم أو فشل فى اظهار بطولته لم تأت عبثا أيضا ، فهى ليست هزيمة شخص عادى .. انها هزيمة بطل .

ومسكين ذلك الميتادور الذى كان لا يزال يعلق نفسه من ذراعه بحافة العارضة ، حتى الاشفاق لم يكن يحظى به بل ولا نظرة التشفى . لم يكن هناك الا الاهمال التام غير المتعمد وكأنه مسح من الوجود ، وكأنه انتهى دون أن يخلف أثرا ، كأنه مات .. بل حتى الموتى يبقى لهم بعض الأثر ، أما هذا فلم يكن قد تبقى له عند الجمهور شىء ، لا شىء بالمرة تبقى .

Looloo
www.dvd4arab.com

- ٩ -

ونفخ فى الأبواق ودخل الثور الثالث ..

كانت الأرينا لا تزال تعانى من حالة الركود المخيمة ، وظلت كذلك لا حيت الثور ولا حيت الميتادور ، ومرت أدوار المصارعة الأولى كما يمضى الشىء الروتينى .. انتباه حقيقة وتحديق ومتابعة ولكن دون حماس شديد ، أحيانا تتصاعد آهة اعجاب بحركة من حركات « الميوليتا » ولكنها أبدا لا تشمل الساحة كلها وتبقى دائما داخل حيز محدود .

الى أن حدث شىء لم يكن يتوقعه أحد .

كان الثور مقبلا مهاجما ، وفى آخر لحظة أزاح الميتادور العباءة الحمراء كالعادة من جانبه الى أمامه لينتهى الهجوم الى لا نتيجة .. وكالمعتاد أيضا بدأ يدور حول نفسه ليواجه الثور الذى كان قد توقف عن اندفاعه واستدار ليعود ، فى تلك اللحظة انزلقت قدم المصارع فوق الأرض الرملية التى تكفلت المصارعات السابقة باثارة تربتها .. وسقط الشاب على الأرض .

وفى أجزاء قليلة جدا من الثانية حدثت أشياء كثيرة مهولة ، فعلى أثر سقطته تصاعدت من الثلاثين ألف حنجرة شهقة هلع تثير وحدها الهلع فى القلوب ، وكان الثور يستدير ، وما أن لمح خصمه ملقى على الأرض على بعد أمتار قليلة منه حتى أقبل نحوه ككتلة شر عاتية موجهة .. بينما من خلف العوارض الخشبية أسرع أكثر من ميتادور يلوح للثور الهائج المقبل كى تتكاثر أمامه الألوان الحمراء وتصرف انتباهه عن الزميل المطروح أرضا ، ولكنها محاولات فشلت فى صرف انتباه الثور . وفقط حين أصبح بينه وبين الشاب أقل من مترين كان الأخير بالكاد قد نجح فى الوقوف وتعريض العباءة له ، وهكذا أنقذ فى آخر لحظة بينما الجمهور لا يزال واقفا على أطراف انتباهه وشعوره هلعا . وقبل أن يصفق أحد لنجاة المصارع أو حتى يعود الى جلسته كان قد حدث شىء آخر !

فبعد مرة أو مرتين والثور يهاجم والميتادور ينحنى ، حدث أن فقد الشاب توازنه مرة ثانية فتهاوى .. وقبل أن يسقط على الأرض كانت رأس الثور هناك اذ لم يكن قد ابتعد . واعتقد الجميع أنها النهاية هذه المرة . وقبل أن تشيح أى سيدة بوجهها ويزدرد أى رجل ريقه كان الثور قد دفع الشاب برأسه ليرفعه الى أعلى وليسقط

Looloo
www.dvd4arab.com

أمامه ويفترسه بعد هذا ، ولكن بدلا من أن يسقط الشاب الى الأمام ، بدفعة حظ واهية سقط الى الخلف فوق ظهر الثور .. وما لبث أن انزلق الى الأرض ، الى حيث استدار الثور وتجمع الزملاء فى غمضة عين يحيطون بالمصارع ويدرءون عنه الخطر . ولكن الشاب حين سقط ما كاد يلامس الأرض حتى كان قد اعتدل وكأنما « بزمبرك » ، وحتى كان ممسكا بالعباءة فى يده يحاور الثور مرة أخرى ويداوره وكأن شيئا لم يحدث .

وارتجت الأرينا بتصفيق عال راعد وكأنما يتنفس الناس الصعداء تصفيقا ، وما لبث الحماس أن انتقل الى المصارع ، ونجاته من ميتتين متتاليتين أذهبت عنه غشاوة الخوف من الموت ، فمضى بكل اقدام يعرض نفسه الى مسافة شعيرات من القرون المخيفة ، وينجو كل مرة فى تفاديها والخروج من المأزق ، وهكذا بعد السكوت الطويل مضت الساحة تجلجل « بأوليه » اثر « أوليه » نشوة واستحسانا .

وبدأت أدرك شيئا وأكاد أضحك من نفسى .

فالرغم من كل ما ذكرته عن الخطر والخطورة والحياة والموت ، بالرغم من ادراكى أن مصارعة الثيران ليست لعبة أو رياضة ، بالرغم من كل ما قلته وفكرت فيه ففى أعمق أعماقى كنت لا أزال غير مؤمن بجدية خطورتها .

كنت أعتقد أن كل ما يدور أمامى ليس سوى استعراض للخطورة ، أما الخطورة نفسها فهى شىء لم أكن قد أحسسته بعد أو لمسته أو رأيته رأى العين .

ما الذى يمنع أن تكون هناك احتياطات دقيقة وراء كل ذلك المظهر الخطر ، بحيث يمكن فى آخر وقت انقاذ المصارع ودفع الأذى الحقيقى عنه ؟ وحتى حين كنت أرد على نفسى بما رأيته فى المتحف وبقائمة الشهداء الموضوعة فى مكان بارز ، كنت أقول : لابد أن الأمر كان كذلك أيام زمان .. أيام البطولة الحقة .. أيام الفتوحات الأسبانية والأرمادا . أو حتى أيام المجد أيام لوركا والحرب الأهلية ، أما الآن فلقد اخترقت البلاد طولا وعرضا دون أن ألمح بادرة بطولة غير عادية ، فما الذى يجعلها تنحصر هنا فقط ؟ لابد أن التطور الذى حدث لرعاة البقر فى أمريكا حين تكفلت الأيام والحياة الحديثة بنقل بطولاتهم ومسدساتهم ومغامراتهم من الحياة والواقع الى الشاشة والقصص ، لابد أن شيئا مماثلا قد حدث لمصارعة الثيران هى الأخرى ، وأصبح الخطر الحقيقى خطرا مفترضا ، والشهداء والأبطال مكانهم فى المتحف وليس فى الحلبة ، وما يدور أمامنا الآن ان هو الا « تمثيل » متقن للعبة بحيث تحياه وكأنه حقيقة تقنع نفسك وتقنعك الدعاية والقصص والأخبار انها موجودة .

Looloo
www.dvd4arab.com

فى حين انك لو دققت وأعملت عقلك لن تجد لها أثرا .

الحادثان اللذان وقعا من لحظات كانا قد تكفلا بقلب كيان أفكارى تماما ، فقد أكدا لى ولكل من راوده الشك ان كان الشك قد راود أحدا ، أن المسألة لا هزل فيها ولا خدعة ، وانها مصارعة جادة حقيقية الخطر فيها ليس موجودا فقط ، أو له لحظات يتبدى فيها . ولكنه قائم فى كل لحظة منها ، ولدى كل حركة أو التفاتة ، وتكفى حصاة صغيرة تنزلق فوقها القدم لتنتهى حياة المصارع فى ومضة ، وقبل أن يفيق هو أو يفيق أحد لما حدث .

ويا لغرابة الانسان ، فمجرد انتقال ايمانى بجدية مايدور من طبقة فى اقتناعى الى طبقة أعمق ، قلب الصورة فى نظرى كلية وتغير معنى كل شىء ، وأصبحت لأشياء موجودة معان لم تكن موجودة ولا تصورت وجودها .

مسألة أربكتنى وجعلت حمى قلق وانتباه تجتاحنى ، اذ الآن قد أصبح كل شىء أمامى خطرا ومصدر خطر .

حتى راكب الفرس الذى يطعن الثور وهو محتم خلف دروعه ، يكفى أن ينطح الثور الفرس بطريقة يسقط معها الفارس الى الداخل بدلا من الخارج لكى يقتله الثور فى الحال . يكفى التواء قدم المصارع أو تكفى عثرة ، يكفى ألا تواتيه سرعة البديهة فى الوقت

المناسب كما حدث لذلك المصارع الذى يصدر التلويحة الأولى للثور حين لم يفطن الى شدة سرعته ، فكانت النتيجة أن الثور وصل اليه قبل أن يتمكن من الوصول الى العارضة الخشبية التى يحتمى بها المصارعون . لم يكن هناك حل للموقف الا أن يختفى المصارع من أمام الثور بطاقية اخفاء ، أو تنشق الأرض وتبتلعه ، ولو فكر لجزء من ألف من الثانية فى الطريقة التى يختفى بها لقى مصرعه قبل أن يكمل التفكير ،ولولا أنه بلا تفكير ، وبقوة ورشاقة منقطعة النظير قفز قفزة أوصلته الى حافة السور ، و « ببلانس » آخر كان قد أصبح خارج الحلقة ، لولا هذا لمزقته القرون تمزيقا .. فقد وصلت الى السور ونطحته تقريبا فى نفس اللحظة التى كان جسده يغادر خشب السور . حتى عملية غرس الأعلام ، سنتيمتر واحد من الانحراف كفيل بضياع الفارس . وهذه الحركات التى يأتيها المصارع فى مرحلة الميوليتا ليثبت بها قدرته وفنه ، مثل الركوع على ركبة واحدة وهجوم الثور عليه وهو على هذا الوضع ، والأخطر منها النزول بركبتيه ، أو ما هو أخطر وأخطر الثبات فى مكانه ودورانه حول نفسه فقط ليتفادى من هجوم الثور كلما غير الثور من اتجاهه . أية أعصاب مدربة علمتها الارادة الحديدية والتمرين على الخوف ألا تفزع أو تأتى

Looloo
www.dvd4arab.com

بحركة طائشة غير محسوبة ، والثور يهجم عليك وقد تكفلت أنت بتحديد مكانك له وآليت على نفسك ألا تبارحه ، وفقط تتفادى من جسده المهاجم بالدوران ربع دائرة ، لكى يمر الثور من المسافة الكائنة فى الفرق بين مواجهتك للثور بعرضك وبصدرك ، ومواجهتك له بجانبك ، فرق لا يزيد على الخمسة عشر سنتيمترا ، بحيث لابد أن تمسك قرون الثور وأكتافه ، وتلوث الدماء الناتجة عن جرح الطعنة والأعلام المغروسة فى ظهره والدماء السائلة على كتفه ثيابك . وتفعل هذا بافتراض أن الثور سيندفع فى خط مستقيم وسيبقى رأسه فى أثناء المرور فى خط مستقيم . ماذا لو كان الرأس معوجا قليلا اعوجاجا يحرك القرن عن موضعه ثلاثة سنتيمترات مثلا ؟ ليس هناك سوى احتمال واحد لا احتمال غيره حينذاك .. أن ينفذ القرن فى جسدك بدل أن ينفذ فى الفراغ .

تغيرت الصورة أمامى تماما ، وتغيرت نظرتى الى المصارعين والثيران . أما العقاب الرابض فوق الأرينا ينتظر اللحظة المناسبة ليعلن عن وجوده وينقض ، لم أعد أحس به كافتراض من خلق الخيال .. أصبحت وكأنى أراه ، لم يعد بينى وبين رؤيته منقضا سوى المفاجأة التى

تخفيها اللحظة التالية .. سوى حصاة تتحرك أو بقعة أرض تلين أو قرن يشتبك فى قطعة دانتلا تزين ثوب .

أما الميتادورات الذين كانوا يتحركون وآخذ حركاتهم قضايا مسلما بها لم أعد آخذها كذلك ، أصبحت كل حركة من أيهم لها معنى وفيها صعوبة ومشقة ، وليس سهلا على أى انسان أن يقوم بها حتى لو بدت عادية لا مجهود فيها ولا بطولة أو فن ، فهى حركات ليست فى الهواء الطلق ، انها حركات فى قلب الخطر .. فى فم الأسد ، وتحت رقابة عشرات الآلاف من العيون التى لا ترحم ، وتحت رحمة كتلة الحياة البدائية المدمرة التى لا تغتفر لحظة ضعف ، والتردد أمامها معناه الموت .

حتى الجمهور فى نظرى تغير ، لم يعد فى رأيى خارج ساحة الصراع .. أصبح داخلها وجزءا لا ينفصل عنها ، ودوره فيها ليس دور متفرجين آدميين .. أصبح وكأنه جماعة شياطين ، آلاف الشياطين ! دورها فى الصراع هو نفس دور ابليس والشيطان ! عملها أن تزيد النار اشتعالا فتظل تحتج على طعن الثور واضعافه حتى تبقى له كل قوته وضراوته ، وتظل تموء وتهتف وتهيب بالمصارع وتوسوس له وتحرضه حتى يضع نفسه فى أشد المواقف خطورة ، محاصرا من كل اتجاه بمأزق الموت الحياة ، مأزق الموت الأكيد والحياة شبه المستحيلة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

فاذا حدث هذا تركته حينئذ يواجه مصيره وحده ، فدورها — دور الأبالسة والشياطين — يكون قد أدى مهمته وانتهى ، ليبدأ دورها كجماهير متفرجة همها الأوحد أن تنهل كل ذرة متعة وكل بادرة نشوة من الموقف الذى خلقته شياطينها وحرضت عليه .

تغيرت نظرتى تماما ، وعرفت لماذا اجتاحت الأرينا موجة الحماس للمصارعة ، وللمصارع الثالث الذى لم يدفعه الى هذا الموقف الذى واجه فيه الموت مرتين الا السلبية المطلقة التى استقبله الجمهور بها والتى ظلت هى المسيطرة طول الوقت .. سلبية ليست فى الواقع الا تحريضا حسامتا يضع شرطا للايجابية والتشجيع والمشاركة أن يريهم المصارع بسالته ويقف ولو مرة واحدة يواجه الموت ، وجعلته حصاة صغيرة يفعل هذا ، والحماس الذى تدفق جعل اقترابه الشديد من الثور يعرضه لموت ثان نجا منه أيضا ونال المكافأة .. تلك الأوليهات التى ظلت تجتاح الأرينا فى نوبات متعاقبة . لكم هى تافهة تلك المكافأة وكم هو غريب ذلك التكوين الذى ينشأ عليه الميتادور والذى يستعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للموت الأكيد من أجل « أوليهة » اعجاب قد تكون آخر ما يسمعه ، بل قد ينتهى قبل سماعها .

ولكنه الاحساس بالأهمية ذلك الذى يدفع الانسان ليقدم على أكبر حماقة فى العالم كى يظفر به ، انها ليست رغبة فى البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته ، ولكن لاظهارها للآخرين وأمام الآخرين . انها كالتمثيل وفيها منه الشىء الكثير ! الفرق أن الممثل هناك « يمثل » الدور وبمقدار اتقانه « للتمثيل » وتقمصه لشخصية البطل ينال اعجاب الناس ، وهنا الممثل « يقوم » بالدور فعلا ، ويقوم به فى مسرحية لا يتخيلها أحد انما فى واقع كأنه مسرح ، فى حقيقة كأنها خيال ، وبمقدار اتقانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال يحظى بالاعجاب . أجل ! الفرق بين المسرح وحلبة الصراع أنهم فى المسرح يحاولون أن يحيلوا الخيال الى حقيقة يصدقها العقل ، بينما فى الحلبة يحاولون أن يحيلوا الحقيقة والواقع الى أعمال خيالية لا يكاد يصدقها العقل ! فى المسرح يخلقون من الخيال حياة بطلة تدفع الى كره الحياة الواقعة وتغييرها ، وفى الحلبة يخلقون من الحياة العادية الخاملة نفسها حياة بطولة حقيقية تدفع الى نفس الغرض ، ولكنها تدفع اليه بقوة أعظم ومفعول أشد . ان الانسان فى بحثه الدائب عن بطولة الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدم أية وسيلة ، حتى تلك الملوثة بالدماء المقطرة بالجريمة . انه بحث أيضا ولكنه يتم بطريقة دنيوية

www.dvd4arab.com

عارمة القسوة لا يغفر لها الا أنها عارمة المفعول فى نفس الوقت .

ولو أن هذا الميتادور الثالث نفسه ، حين جاءت ساعة القتل لم يتمكن من صرع الثور بالطعنة الأولى ، ولا حتى بالثانية ، الا أنه كان قد قدم دليل البطولة وقربانها واضحا لا شك فيه ، وكان الجمهور رغم نهمه الى كل ما يثير وضيقه بكل ما لا يؤدى الى غرضه ويصيب ، على استعداد لأن يصفح عنه من أجل هذا الفشل ويغتفره ولا يموء والمصارع يستخرج السيف أكثر من مرة ليعود يطعن به . ويظل يفعل هذا الى أن يخر الثور صريعا لا من الاصابات المباشرة ، ولكن بحكم النزيف الذى لابد حدث داخله .

وهكذا انتهى الشوط الأول من المصارعة وبقى جرؤها الثانى الذى كان على المصارعين الثلاثة أنفسهم ، وبنفس الترتيب ، أن يصرعوا فيه ثلاثة ثيران أخرى .

وفى أثناء الاستراحة التى سويت فيها أرض الساحة ودخلت عربة رش سريعة خاصة انتهت من بخ الأرض بذرات الماء لكى تبلل فقط رمالها التى جفت ، فى تلك الأثناء وخلال عشرات ومئات وآلاف المناقشات السريعة التى دارت بين جيران وأصدقاء وأناس لا يعرفون بعضهم بعضا ، أجمعت التعليقات على أن الثيران ليست

بالقوة المفروضة ، وكأن هناك مؤامرة من وراء الستار لاختيارهم صغارا ضعافا هكذا ليكونوا للمصارعين غنيمة سهلة .

وأجمعت التعليقات أيضا أنه باستثناء المصارع الأول ، صديقى الذى سرنى سرورا خفيا هذا الاجماع على استثنائه وتفضيله ، فالجميع دون المستوى المفروض . وبدأت حناجر أسبانية عجوز معروقة تترحم على كبار المصارعين فى الزمن الغابر ، وتتذكر بالخير بعض الشبان المعاصرين أمثال باكوكا مينو وديبجو بورتا وجواكين برنادو وجيم أوستوس وغيرهم . ولكن الأمر لم يعدم أصواتا أكثر تفاؤلا بدأت ترتفع وتدافع عن المصارعين اللذين كان أحدهما برتغاليا من لشبونة وكان الآخر من أسبانيا الشمال من برشلونة وتقول ان ما حدث سببه الوحيد رهبة المواجهة الأولى ، رهبة لابد أنها زالت الآن تماما وأنهم لابد بسبيلهم الى مشاهدة عرض رائع فى الجزء الثانى . وما لبثت آراء بقية المعلقين أن انساقت وراء هذه التفسيرات المتفائلة مستسلمة للرأى أو مفضلة فى الحقيقة أن تتفاءل وتستسلم على أن تظل على عنادها متشائمة .

وكان مكان جارتى الفتاة خاويا ، وقبل أن تذهب بى الظنون الى أبعد من الساحة وجدتها قد عادت متابطة

www.dvd4arab.com

باقة أزهار لا أعرف كيف وجدتها وبمثل تلك السرعة . ولكنها كانت تلهث وفى عينيها ذلك البريق الذى يفضح تصميمها على أمر ما . وكانت منفعلة تبدو كمن فقدت لتوها وربما لأول مرة فى حياتها السيطرة على نفسها حتى انها فعلت ما لم أكن أتصور مطلقا أن تفعله ، بدأتنى بالكلام لا أذكر كيف ولا فى أى موضوع ، ولكنا فى دقائق قليلة قلنا أشياء كثيرة يأخذ الناس فى العادة ساعات طويلة ليتمكنوا من قولها . وأغرب شىء أننا تحاشينا تماما ذكر الحادثة التى سببت كل هذا وحيرتنى ، فقد كان شكلها أسبانيا ولكنها كانت تتكلم الانجليزية بطلاقة وكأنها لغتها الأولى ، وتتكلمها بخفافة أمريكية واضحة .

وخمنت أنها ليست أمريكية ولكنها تحيا فى أمريكا ، فغير الأمريكان يبدون أكثر تمسكا ونطقا باللهجة الأمريكية من الأمريكان أنفسهم . والمفاجأة كانت حين أخبرتنى أنها من كوبا ، ولكن لا تترك ظلا من الشك أردفت انها ضد كاسترو وأنها لا تتمنى شيئا فى الدنيا قدر أن تراه مهزوما كذلك المصارع الثانى مدحورا .

ورغم أنى أحسست أن حاجزا سميكا قد سقط بيننا فجأة ، الا أن الحديث لم ينقطع وعرفت أنها أبنة أحد كبار مزارعى الدخان الذين طردهم كاسترو . ورغم هذا

فهى لم تكن تحيا فى كوبا ، كانت تعيش وتتعلم منذ طفولتها فى ميامى حيث كان لأبيها فيلا يأتى اليها مع العائلة بطائرته الخاصة من عاصمة كوبا « هافانا » ليقضى معها هو والعائلة نهاية الأسبوع . وقد جاء الأب ليحيا معها بعد أن « ذهب كل شىء » ، أما لماذا هى فى أسبانيا فالسبب قصة طويلة حول ميراث وقضية وأب أصابته الصدمة بانهيار وأصبح العبء كله على عاتقها ، وليست هذه أول مرة تأتى فيها لمدريد ، ولا المرة الأولى التى تشاهد فيها المصارعة ، ولم تكن أبدا — فى حياتها تتوقع أن يحدث لها شىء مثلما حدث .

كانت تتكلم بلهجة التى تعرف ما تريد ولا يمكن أن يثنيها شىء عن تحقيقه . كلام ولهجة وشخصية ما أكثر ما تقابلها فى الجيل الأمريكى الجديد ، الجيل الذى لم يزجره أب ولا نصحته أم ، المدلل الذى عودوه منذ الصغر أن تكون رغباته ونزواته قوانين تتطوع الأسرة بتقديمها وهو طفل ، ويفرضها بالقوة وهو كبير . وكانت جميلة جمالا لاتينيا متفجرا وان كانت الحياة فى ميامى قد شذبته وأمركته وصبغت أنوثتها — كمعظم الفتيات الأمريكيات — بعناد الذكور وحقوقهم ، وأحيانا بصفاقتهم وخشونتهم .. حقيقة تدفعك للعجب أن تكون هى نفسها الفتاة التى تجمدت

Toolbox
www.dvd4arab.com

محمرة خجلا منذ وقت قليل ، فقد كان باديا عليها أنها من صنف وجيل لم يعرف الخجل ولا جربه ، ولا يستحى حتى من رغباته الخاصة جدا • اذ هو يعتبر أن كل ما يريده ويحس به قانونى وحلال • ثم لماذا الاحساس بالخجل أمام الناس ، ولا أحد يقيم لهؤلاء الناس وزنا أو يعطيهم الحق فى الحد من حريته وحرية تعبيره عن رغباته ؟ ربما كانت هذه هى المرة الأولى التى يدهمها فيها احساس كهذا وعلى تلك الصورة • وربما أيضا •• ولأنه الوحيد الذى استطاع أن يجبرها على هذا الموقف الأنثوى الخالص •• لن تنسى أبدا لهذا الميتادور فعلته ، بل الواضح أنها بدأت ، وقد خرجت وعادت تحمل الزهور « تصرف أنثوى آخر » ، بدأت تنسى كل شىء •• مزارع التبغ ومياهى والقضية وأباها وحتى كاسترو ؛ ويصبح همها الوحيد فى دنياها — هنا — معلقا بهذا المثلث الشاحب الرشيق ، بوجه صديقى الذى اخترته أنا الآخر ولأسباب أخرى كى أغدق عليه اهتمامى وارعاه رعاية الأب لابن ضال •

— ١٠ —

ودوت أصوات الأبواق عالية بحيث سمعها الجميع هذه المرة ، ولفت أصداؤها أنحاء الأرينا • ورفع مراقب المصارعة السبورة الخشبية التقليدية التى يكتبون فيها اسم المصارع • كنت أعرف ومتأكدا هذه المرة أنه دور صديقى الميتادور ، ولأننى استغربت أن أكنّ له كل ما أشعر به وانا لا اعرف مجرد اسمه ، فقد حاولت أن أدير رأسى مع السبورة كى أقرأ الاسم من مكانى والمراقب يلوح بها فى كل اتجاه ، ولكنى لم أستطع • وعرفت حينئذ أن علىّ أن أظل أجهل اسم ذلك الصديق حتى وهو يخوض للمرة الثانية مأزق الموت والحياة •

وبينما خلت الساحة تماما من المصارعين الذين اختفى كل منهم وراء أقرب حاجز خشبى ، دوت أصوات الأبواق مرة أخرى •

وفتح باب الممر المؤدى الى الحظيرة •

ودخل الثور هائجا كالعادة ، مندفعا متفجرا •

ولكن دخوله قوبل بآخر ما كنت أتوقعه . فقد

Looloo
www.dvd4arab.com

انفجرت فى الحال بفع احتجاجات متفرقة ، وبدأت الصيحات تنتشر وتشمل مساحات أوسع من الجمهور .

كان واضحا أن الجمهور لا يعجبه الثور ، ويرى أنه أصغر سنا مما يجب وأقل قوة .

وكانت الصيحات تطالب بتغييره .

وبدأت معركة خفية بين المشرفين على « الفييستا » وبين الجمهور ، المشرفون هدفهم الاسراع بالاجراءات التمهيدية لوضع الجمهور أمام الأمر الواقع ، والجمهور يقاوم هذا بكل قوته ويطالب بتغيير الثور .

أما الثور فقد كان أمره يدعو للحيرة ، فهو فى أحيان يبدو قويا يملك طاقة لا حد لها ، وفى أحيان أخرى يتوقف فيظهر حجمه وسنه على حقيقتهما . وتتعالى صرخات الجمهور .. بل دفعته سرعته أثناء التى يتحرك بها مرة الى أن يتعثر ويسقط على أطرافه الأمامية ، ولكن الاندفاع الجبار الذى كان قادما به جعله يحمل جسده كله ويقلبه الى أمام مرتكزا على قرنيه ليعود ينقلب مرة أخرى ليقف معتدلا وينطلق أيضا وبنفس السرعة الى هدفه لا يلوى على شىء .

وبدأ المصارعون يبرزون ويلوحون ، والجمهور يزداد تشنجه وصخبه .

وكمحاولة أخيرة من المشرفين دوى صوت الأبواق يأمر راكبى الفرس « البيكادورز » بالدخول . وكأنما كان هذا ليس فقط اشارة البدء لدخولهم وانما لاستماتة الجمهور أيضا فى رفض الثور . فقد شملت المدرجات كلها موجات متعاقبة متزايدة صاخبة من الهواء والصفير والهدير الغاضب .

ولكن الباب كان قد فتح ودخل الفارسان وكل منهما قابض على حربته . ولم يلبث كل منهما أن مضى الى النصف الخاص به من الدائرة الرملية بحيث اذا اختار الثور أن يهاجم أحدهما انسحب الآخر .

وسكب دخولهما وقودا جديدا فوق النار المشتعلة ، وازداد الجمهور عنفا ، وبدأت القبضات تلوح وألفاظ السباب تسمع واللعنات من كل اتجاه تنصب على الفارسين اللذين تسرب الشحوب الى وجهيهما . وبدأ أحدهما يلوح بحربته مهددا الجمهور فى حركة لا ارادية .. ولكنه تهديد الخائف الشاحب ، خوف يدعو للتأمل ، فهذا جمهور لا قرون له ولن يقتل غضبه ، ولكن صيحاته .. جثيرة .. عداءه بعث فى قلوب الفارسين رعبا دونه رعبهما من الثور والخطر الداهم بكثير .

ولم يكن هناك وقت لتأمل أكثر ، ففى هذه اللحظة دوت أصوات الأبواق مرة أخرى .

Looloo
www.dvd4arab.com

حسبتها الغالبية أمرا للفارسين ببدء الهجوم .

ولكنه كان أمرا من رئيس الاحتفال وقاضيه الأعلى يطلب منهما الانسحاب ومغادرة الساحة . وارتجت الأرينا بتصفيق كاصطفاق أمواج المحيط .

وفرح الفارسان وقد عادت الدماء الى وجهيهما بعد طول امتقاع .

وكذلك انسحب المصارعون بعباءاتهم الى ما وراء العوارض الخشبية .

وبقى الثور وحيدا وسط الدائرة الرملية .. واقفا وقفة تحفز .. ينظر فى ريبة الى السكون المناجىء الذى شمل الدنيا فجأة من حوله .

ولابد أن الخطوة التالية كانت اخراجه من الساحة . والمشكلة العويصة التى وجدتها تحتل كل تفكيرى هى كيف ومن الذى يجرؤ وأية قوة يمكنها أن تجبر هذا الكائن الجهنمى الطليق أو تجعله بطريقة أو بأخرى يعود الى دخول الباب الذى خرج منه ؟

وكنت على يقين أن التراث الطويل للعبة قد أوجد حلولا لمثل هذه المواقف ، ولكن أى حل ، ذاك ما رحت أفكر فيه وكأن الموضوع لغز على أن أخمن له حلا سريعا قبل أن أرى الحل الصحيح أمامى بعد قليل .

وقد فكرت فى طرق شتى ولكنى أبدا لم أتصور أن

يكون الحل الذى ابتكرته التجربة الطويلة والخبرة سهلا وبسيطا وعبقريا الى هذه الدرجة .

الطريقة أنهم أدخلوا فى الساحة ثلاث أو أربع بقرات من نفس الفصائل ، وقد علقوا فى رقابها علبا من الصفيح داخلها قطع معدنية تحدث ضجة كلما اهتزت . وقد كنت أحسب اناث هذا النوع لها نفس شراسة الذكر وطبيعته العدوانية ، ولكن البقرات دخلت فى هدوء وتأنها بقرات مستأنسة . وقد كنت أتصور أيضا أن الثور سينقض عليها لحظة أن يراها مثلما يفعل بالحصان أو بالخشب أو بأى مما تقع عليه عيناه ، ولكنه ما كاد يسمع أصوات الخشخشة حتى رفع رأسه مترقبا والأبقار تسرع الى وسط الحلقة حيث يقف ، ليس اسراعا أهوج متفجرا أحمق ، ولكنه اسراع الأناث المتأنى ، اسراع الحياة الحريصة على استمرارها .. المعقولة .

وفى ثانية كان الثور قد اختفى بينها وأصبح فردا من قطيعها ، يتحرك معه اذا تحرك وبنفس سرعته ، ويقف اذا وقف وتنطبق عليه كل قوانينه . وقد زال عنه توتره وتحفزه ورعبه ، وأيضا زالت تماما كل رغبة لديه فى المهاجمة أو الانقضاض وأصبح وكأنه الابن الضال الخائف المتوجس وقد عاد لأحضان أمهاته وخالاته

Looloo
www.dvd4arab.com

وعماته ، وزالت عنه صفات الشريد المجرم لتحل محلها وداعة أبناء الأسر .

وكان التغير سريعا وحادا وملحوظا الى درجة لابد تصيب المتتبع له بالذهول . لكأنما عصا ساحر أشارت فاختفى الثور المرعب فى ومضة وحل محله ثور آخر مختلف فى كل شىء عنه . أتراها الأمومة ؟ أم هى سحر الجماعة والقطيع ؟ أم هو الاحساس بالونس ؟ أم هذا كله مجتمعا ؟ .. الى درجة لم أصدق فيها ما أراه حين دخلت الى الحلقة بعد هذا فرقة من ثلاثة أو أربعة فتيان غير مسلحين الا بسياط تفرقع فى الهواء ، وبفرقعتين تحرك القطيع مسرعا ناحية باب الخروج نحركا لا تستطيع أبدا أن تميز فيه الثور المتوحش من البقرات المستأنسات . وهكذا وفى مثل لمح البصر انحلت المشكلة التى خيل الى أنها ستستغرق أزمانا لحلها .

وأحسست بحاجتى أن يشاركنى أحد فيما أفكر فيه وأتصوره ، وليأسى من جارى الأسبانى وبيننا الخندق اللغوى العميق ، التفت الى جارتى الفاتنة المحتضنة زهورها والسابحة فى وديان ، ويبدو أنى فعلت هذا فى وقت مناسب جدا وكأنها هى الأخرى كانت تهفو الى من تشاركه ، حتى خيل الى أنى ألمح ألفاظ الحوار المتزاحمة تكاد تنزلق من تلقاء نفسها وتغادر طرف

لسانها . وكادت الانجليزية التى أتقنها تخوننى وأنا أحاول أن أجسد لها الخواطر التى راودتنى وأنا أراهم يستعملون سلاح الأمومة للقضاء على وحشية الثور ورغبته فى البطش .

ودون أن تعتدل وجدتها تقول فى اعتداد كسول وبلهجة من تعودت أن تقول رأيها ليصبح للآخرين منزلا وقانونا :

— لا أمومة هناك ولا شىء من هذا .. المسألة تدريب . لقد دربوا الثور على أن دخول الأبقار وما يصاحبها من ضجة معناه الأمان ومعناه أن عليه أن يترك تحفزه وبطشه . نوع من الانعكاس المشروط ، ألا تعرفه ؟ ألا تعرف الانعكاس المشروط الذى اكتشفه بافلوف ؟ .

أعرفه ؟ ! .. لقد كان باستطاعتى أن أقضى اليوم بطوله أناقشها فيه . ولكن ما فائدة أن تناقش انسانة لا تناقش لتقتنع أو حتى لتظل على الحياد وانما هى تناقش فقط لتقنعك ، أذا فرض وتنازلت هى وقبلت مبدأ أن يستمر النقاش ، هكذا بدت حتى وهى هادئة تائهة سرحانة .

وكان غريبا منها ، وفى ظرف كالذى كنا فيه ، وفى أحرج فترة .. تلك المواقعة بين الحراج الثور والرجال

Looloo
www.dvd4arab.com

الآخر الذى لابد أنه أقوى وأكثر وعورة وخطرا ، خطورة حتما سيتحمل وزرها وضراوتها صديقها الميتادور الذى خصها بعنايته والذى تحمل له الزهور • غريب منها فى لحظات حرجه كتلك أن تستطرد سارحة أيضا وتائهة لا لتكمل النقاش حول كيفية اخراج الثور وانما لكى تسألنى عن شىء خاص بى أنا •• عن جنسيتى • سؤال لم تصدق أنى أقول لها الحقيقة مجيبا عنه • وبعناد غريب يضحك رفضت أن تقتنع أنى عربى من مصر ، وحمدا لله انها اكتفت بهذا الرفض ولم تشأ أن تفرض بمنطقها شديد المراس المدلل جنسية أخرى • والظاهر أننا كنا لابد سنصل عاجلا أو آجلا الى الموضوع الذى تحاشيت دائما أن أخوض فيه ، فقد سألتنى عن رأيى فى كاسترو وثورته • وكأنما كانت تتوقع الاجابة فلم يبد عليها الامتعاض الكثير الذى توقعته ، وان شعرت أن مجرد نطقى بالرأى قد حدد الى درجة ما علاقتنا الى الأبد ، وجعلها تنزل من ناحيتها حاجزا سميكا لا يمكن اختراقه أو تجاهله • ومن خلال الحاجزين •• ذلك الذى أسدلته من ناحيتى والذى أسدلته من ناحيتها •• بدا أن لا محل ولا مجال لأية خطوة مقبلة :خطوها معا • فالأمر عندها ليس خلافا فى الرأى أو سياسة • ليس هناك الا واحدا من اثنين : أما أن تكون معها فأنت حينئذ

صديقها ، أو عليها وضدها لكى تصبح عدوها اللدود الذى لا تتورع عن محاربته بكل سلاح وأى سلاح ! والناس بالتالى ليسوا فى نظرها بشرا لهم حيواتهم ووجودهم وآراؤهم الخاصة ، ولكنهم أيضا اما معها أو ضدها • أما أعداء أو أصدقاء ولا وسط ولا حياد • والعداوة عداوة كاملة ! والصداقة أيضا ليس فيها درجات ! فهى تبغضك اذا نسيت وتجاهلتها ولم تحبها •• تماما مثل بغضها لك اذا قتلت أباها • عداوة وصداقة ليست بالعقل ولا بالمعقول ولا تخضع لمنطق أو حجج • فهى لا تستطيع أن تبرر لك عقليا كرهها لكاسترو ، وتجد أن من الاهانة لها أن تطلب منها تفسيرا لرأيها ، اذ يكفى جدا أنها هكذا ارادت وعليك ان تقبل وليس على العالم الا ان يخضع لتلك الارادة ، والا عادته وأصبح فى نظرها هو ذلك العالم المقيت السخيف الذى لا معنى له •

وكم أحسست بنفتى موزعة مشتتة بين كلامها الذى يكشف عن شخصية جديرة بالدراسة والتفرج ، وبين انشغالى الأعظم بالمصارعة وبالثور الذى خرج ، وبصديقى الميتادور وغريمه الذى لا ريب سيدخل حالا •• أريد أن أترك كل شىء وأسمعها ولا أستطيع الا أن أهب نفسى تماما للدقائق الرهيبة التى يضمنى فيها ذلك العالم الجديد على تماما •

Looloo
www.dvd4arab.com

غير أن الواقع نفسه لم يلبث أن تكفل بضبط اهتمامى .

فقد تصاعد صوت الأبواق يعلن فتح الباب للثور الجديد .

واندفعت الكتلة السوداء داخله .. وأسكت دخول الثور الساحة تماما وقضى على كل ما كان باقيا من همهمات . فقد اختير وكأنما ليفحم الجمهور الحاضر ويغلق أفواهه . بدا للأعين أضخم من كل ما سبقه من ثيران وأكثر قوة وشراسة . ولم يندفع الى الحلقة فى جرى مراهق مجنون مثل سابقيه ، ولا مضى بحمق واسراف وبذخ يبعثر قواه فى سباق موهوم لا طائل من ورائه ، بدا وكأنه مدرب محترف لا حد لثقته بنفسه ، يدخر قواه كلها الى اللحظة التى يلمح فيها هدفا أو تتحرك أمامه عباءة . حينئذ وباندفاع ديناميتى صاعق ، وفى أقل من غمضة عين يكون قد انطلق ووصل وانقض على الهدف مكتسحا اياه بكل سرعته وكتلته ، وما فى جسده المحشو من طاقات ، وكأنه « بولدوزر » خرافى كفيل بتحريك الجبل اذا اعترضه ، بل كفيل بسحقه ونسفه وتحويله الى هباء . ثور ما كاد يدخل ويلوح له بالعباءة مرة أو مرتين ، ويقطع الدائرة الرملية منقضا ، ويبدأ الناس يمعنون فيه النظر ويتأملونه حتى تأكدت أن كلا

منهم لابد أصيب بنفس القشعريرة التى أحسستها .. حتى وأنت واثق تماما ومتأكد أنك بعيد عنه وأنه لن يقترب منك أبدا ومستحيل أن يهاجمك لا تملك الا أن تحس بالخوف .. ذلك النوع من الخوف الذى نشعر به تجاه كل شىء مهول مطلق بغير حدود ، تجاه كل ما ليس له ند ، تجاه كل ما لا يمكن التصدى له أو مقاومته .

ولأول مرة أحسست بالقلق العظيم يتحول الى خوف حقيقى ، خوف على صديقى الميتادور الذى كان عليه أن ينازل هذه القوة الغاشمة المطلقة . صحيح هو قد أثبت لى ولألوف الثلاثين ومنذ وقت قليل أنه بطل وأنه حاذق ، وأن باستطاعته أن يصرع الثور فى لمح البصر .

ولكن ما رأيناه شىء وما كنا نراه شىء آخر .

رحت أتأمل الثور وأعود أتأمل الجزء الظاهر من جسد صاحبى الدقيق النحيف ، وما من مرة أعتد المقارنة الا وأحس أنى على وشك أن أصرخ طالبا منه أن يترك الساحة وينسحب . وكأنه سمع الصرخات التى لم تنطلق ، ففى تلك المرحلة الأولى حيث يتناوب المصارعون محاورة الثور لدقائق قليلة لاختبار مدى قوته وادراك نقط ضعفه ومعرفة طريقته فى الهجوم ومبلغ تحكمه فى جسده وأطرافه ، خرج له صاحبنا يتحداه ويستفزه ،

Looloo
www.dvd4arab.com

بجسد بدا أنحف وأدق مما كان ، ووجه يكاد يتحول الى مستطيل ..

وانقض الثور بكل عنفه وقواه ، وببساطة غريبة تحاشى الميتادور هجمته ، وانقض ثانية وتحاشاه . ومرة ثالثة استجمع كل البدائية والتوحش وانقض وتحاشاه ، وتصاعد من الأرينا تصفيق كأنه علامة اطمئنان كبرى .

واسترجعت بعض أنفاسى ، وتضاءل خوفى ولكنه ظل هناك .

وبدأت مرحلة البكادورز راكبى الأحصنة .. مرحلة الطعن للاضعاف . ولم يقدر للفارس الأول أن يفعل شيئا ، فبضربة واحدة من قرنيه أطاح الثور بالفرس وألقاه كتلة لا تتحرك فى ناحية ، وسقط الفارس فى ناحية أخرى . ضربة من القوة بحيث اعتقد الناس أن الفارس والفرس قضيا ، ولكن كان لا يزال فى عمرهما بقية ، وتكفل ثمانية مصارعين بشغل الثور وقتا أمكن فيه ايقاف الفرس المكوم واخراجه ، وكذلك فعلوا بالفارس .

وبوجه ليمونى أصفر دخل الفارس الثانى وهالة من اشفاق الجمهور تحفه ، الجمهور نفسه الذى لا يكره شيئا قدر كرهه للفارس ودوره وقد قلب جبروت الثور عواطفه وموازينه .

والمفروض أن الثور لا يهاجم الفرس مباشرة ،

ولا يفعل هذا الا بسلسلة من المحاورات يقوم بها المصارعون على التوالى ليزحزحوا الثور من مركز الدائرة الرملية فى الوسط الى ذلك الجزء من محيطها الذى يوجد فيه الفارس . وفقط حين يحدث هذا ويلمح الثور الفرس يبدأ فى مهاجمته .. هذه المرة ومن مكانه فى مركز الدائرة لمح الثور الحصان وراكبه ، ولم يحتج الأمر مناورة أو مداورة فقد أقبل فى زوبعة سوداء هائلة ، ولولا أن الفارس تحرك بفرسه قليلا وفى الوقت المناسب لحدثت كارثة ، اذ بهذا الانحراف القليل تفادى من الصدام المروع وانكشف له ظهر الثور ، ولم يلبث أن غرس فيه بجماع قوته الحربة . وظل الثور يدفع الفرس برأسه ، والفارس بكل ما فيه من قوة وما تسلط عليه من رعب يدفع الحربة بين كتفيه . الثور يدفع وهو يدفع . اللحظات نفسها التى يتأوه لها الجمهور تقززا وتألما لم تحدث شيئا من هذا الأثر ، فالثور كان يبدو للجمهور كمارد عملاق غير محدود القوة لا يمكن أن يتألم أو تؤثر فيه طعنات . حتى حين خلع الفارس حربته ورشقها فى الناحية الأخرى طاعنا اياه طعنة ثانية ، مصرا على ابقاء الحربة مغروسة فى لحمه ، ودفعها بأقصى قواه وطعنه ، لم يتأثر الجمهور أو يتململ فقد كان على استعداد لتقبل طعنة ثالثة ورابعة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن الأبواق دوت معلنة انتهاء مهمة الفارس .

وكذلك دوت الساحة بموجة تصفيق ربما المرة الأولى والأخيرة التى يصفق فيها الجمهور لفارس على مهمته المقيتة وعلى نجاحه فى أدائها .

وانسحب البيكادور وهو يحيى الجمهور ووجهه يطفح بالسعادة ، وكان أقصى ما كان يتوقعه أن يخرج سالما واذا به يخرج بطلا أيضا .

وجاء دور غارس الأعلام « الباندريللوس » .

وأن تفعلها مع أى ثور أمر قد يكون معقولا ، أما مع هذا الثور بالذات فهو انتحار لا شك فيه . اذ قد بدا من تحركاته الأولى أنه يملك مقدرة هائلة على تكييف اندفاعه وضبط تصويبه والقدرة على ايقاف نفسه فى الحال والاستدارة ثم الانطلاق بنفس سرعته الأولى المخيفة .

ولكن المرحلة تمت ودون أى حادث ، والجمهور لا يكاد يصدق وغارس الأعلام نفسه كأنه فى حلم أو أنقذ من موت محقق بمعجزة أو بأعجوبة .

هكذا كانت ملامحه تنطق وتوزع ذهولها على زملائه والثور والمدرجات . وبنفخة بوق طالت وامتدت أعلنت بداية مرحلة الصراع الحقيقى « الميوليتا » .

ومن خلف العارضة ، وبقناع شامل من الثقة

والشموخ ، وبخطوات ارادية محسوبة تحرك صديقنا الميتادور آخذا طريقه داخل الدائرة مقتربا من الثور .

ولابد أن خطأ كان قد وقع أو حدث ، فقد سرت فى المدرجات همهمة ، ارتفعت داخلها أصوات سرعان ما لفتها نوبات دهشة واستغراب .

وزادت دهشتى حين بدأت الأنظار تتجه الى ذلك الجزء من المدرج الذى كنا نجلس فيه . حركة جعلتنى أفيق من الأحداث التى جرت وامتصت انتباهى وأعود أفطن الى وجود جارتى اللاتينية الفاتنة التى لابد أن الأنظار تقصدها ، وتقصدها لسبب ما .

ووجدت نفسى أقتحمها أنا الآخر بنظراتى .

كانت الحمرة هذه المرة ليست أبدا حمرة الخجل .. حمرة قانية .. حمرة دم محروق لا يزيده الزمن الا سوادا .. وكانت ملامحها جامدة أيضا ثابتة لا تتحرك ، ووجهها قد انحرف ينظر الى ناحية . نفس صورتها الأولى مع فارق أساسى واحد أن أسبب فيها لم يكن الخجل ، كان الغضب .. غضب المدللين الجارف العنيد . فقد كان مفروضا بعد هذه التحية التى تلقتها منه فى المرة الأولى أن يأتى الى حيث تجلس هذه المرة ويحييها قبل أن يبدأ صراعه مع الثور ، علنا وأمام الناس ، ويقذف لها بقبعته مهديا اليها عمله « الفنى »

Looloo
www.dvd4arab.com

الخطير الذى يوشك الاقدام عليه • ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فما هو يتجه الى الساحة ومعه العباءة الحمراء دون أن يهدى اليها أو يهدى الى أحد شيئا ، وها هى جماهير المتفرجين ، ، حتى المتفرجين ، تتذكر ما كان يجب عليه عمله وتلتفت اليها ، بينما هو — وكأنما لم تكن — ولا حدث بينهما شىء •

كانت احدى يديها تقبض على باقة الزهور بشدة بينما الأخرى تسحق زهرة اختارتها وأخرجتها من مكانها ومضت تمزقها بأصبعيها ووجهها أسود بالاحمرار والغيظ •• غير أن هذا لم يدم الا للحظة تمالكت نفسها بعدها ، أو على الأقل هذا ما بدا ، ووضعت الزهور جانبا وارتكزت على الحاجز أمامها بكلتا ذراعيها وانصرفت تماما ، أو هكذا بدا أيضا ، الى التفرج ومتابعة ما يدور فى الساحة •

كنت أتمنى لو استجابت للضعف الأنثوى مرة وأسقطت دمعة ، اذ ليس أجمل من أن ترى العناد المدلل وهو يتحطم أمامك رغما عنه وعن صاحبته •

ولكنى لم أشأ أن أضيع الوقت فى انتظار ظهور دمعتها ، وعدت الى الساحة •

مرحلة الميوليتا بالذات ، قمة اللعبة وأروع ما فيها ، مرحلة لها كيانها المستقل وخصائصها • المبادور يكون

قد اشترك مع زملائه فيما قبلها من مراحل وخبر الثور وعرف الكثير عنه • ولكنه لا يبدأ يعرفه معرفة حقيقية الا هنا ، حين تخلو الساحة تماما الا منهما ، حين تصبح عليه وحده مسئولية مواجهته • ولهذا فدقائقها الأولى مليئة بالتوتر والأعصاب المشدودة وكل الظواهر المصاحبة لبداية العمل الخطير ، ولكنها مظاهر وظواهر لا تبدو الا لعين خبيرة • فالمصارع يحرص بوعى شديد — ولعله العمل الواعى الوحيد الذى يقوم به المصارع عن ارادة وادراك خلال تلك الدقائق — يحرص على اخفاء حالته تماما فى ثوب الكبرياء الذى يرتديه والبطء النسبى الذى يتحرك به •• لكأنه يقدم لغريمه أول مرة ويحرص على أن يبدو أمامه على هيئة المترفع المتعالى الذى يتنازل ويقبل مصارعته • هكذا يبدو الميتادور وهو واقف وقفته التقليدية معوج العنق ، رافعا ذقنه فى شموخ ، نافخا صدره ، متراجعا برأسه الى الوراء ، داقا الأرض بقدمه دقات تتلوها وتسبقها أصوات منادية مستفزة يتحدى بها الثور أن يهاجمه كاشفا له الوجه الأحمر للعباءة ليثيره ويدعوه الى الانقضاض •

والحقيقة لا تكون هناك حاجة لاستثارته أو دعوته ، فهو المبادر دائما بالحركة •• المندفع •• مهاجم فى كل

www.dvd4arab.com

اتجاه ، المثير فى غريمه كل ذلك الاضطـــراب الأول ، والتوتر وشدة الأعصاب .

وكل هجمة من الثور تزيد من اضطرابه وضعف ثقته بنفسه .

وكل حركة من المصارع يحشد لها كل طاقته المشتتة ويضع فيها كل حذقه ليرد بها على الهجوم ، وكل حركة كهذه تصدر عنه ولا تظفر من الجمهور بتحية أو ترتفع لها « أولية » تزيد الموقف تعقيدا والأعصاب المشدودة توترا .

يظل الميتادور هكذا واجف القلب فاقد الثقة ضائعا بالكاد يستطيع التماسك والوقوف ، خائفا من الثور خوفا يضيف الى وجهه كل جزء من الثانية طبقة صفرة جديدة ، يظل هكذا الى أن يحدث ويأتى بحركة رد يخرج بها من مأزق وعر ، فتفلت من الجمهور رغما عنه آهة الاستحسان الأولى . فقط حين تتصاعد هذه « الأوليـــة » الأولى وتصاعدها بالمناسبة ليس أمرا سهلا ، ففى دقائق البداية يقف الجمهور دائما من الميتادور موقف المتحفظ الكابح لجماح انفعاله بحيث يظل بارادته يؤجل اظهار استحسانه الى حركة أروع وأخطر .

واذا ترك الأمر لارادته فمن المحتمل جدا أن تنتهى المصارعة دون أن تظهر بادرة استحسان واحدة ، ولأن

اظهارها أمر مهم وهو الذى يجعل المصـــارعة تحمى والمصارع يقوى وينتصر . بغير مشاركة هذا العنصر المهم فلن توجد اللعبة أو قد توجد على هيئة محاورات باردة لا تثير أية متعة أو انفعال . ولهـــذا فصـــيحة الاستحسان الأولى تأتى دائما لا ارادية ، أكثر من هذا ، تأتى رغم ارادة الجمهور الكابت لرغبته كلما انتابتـــه الرغبة لاظهار الاستحسان .

هـــذه « الأوليـــة » الأولى هى الشرارة التى تحدث وتضرم النيران .

فعلى أثرها تنتهى تماما كل مظاهر اضطراب البداية ويتحول المصارع من طرف سلبى همه أن يدافع عن نفسه ضد هجمات الثور حتى وان بدا أنه هو الذى يستفزه للهجوم ، الى الطرف الايجابى الذى يسيطر على المصارعة ويحركها ويزيد سرعتها ويبطئها . الطرف الذى يحرك الثور فى الاتجاه الذى يريد ، فيضيق على الخناق أو ينصب له الشرك ، صاحب اليد العليا .

وهنا وحين تتخطى مرحلة الميوليتا هذا الطور الأول ينسى الميتادور شكله المتكبر المترفع الذى يحب أن يبدو به أمام الثور وأمام الناس ، ويبدأ يتحرك بحرية وبلا أى تقيد بالمظهر وهمه كله أن يستغل قدرته على التحرك السريع وخفته كى يتغلب بها على شدة هجمات الثور وقدرته الجبارة على الجرى والاندفاع

www.dvd4arab.com

وهكذا مضى صديقى الميتادور وكل أعصابى وانتباهى وتركيزى قد أصبحت جميعها معه وكأننى أخوض المعركة بجواره ، مضى يحاور الثور الذى بدا ، بارتفاع منطقة أكتافه الأمامية وعنقه ورأسه عن بقية جسده ، كأسد بقرى متوحش أحضر لتوه من الغابة .. أسد لم يتكفل جسده العارى من كل فروة أو شعر بتخفيف حدة مظهره أو كتلته ، وكأنه مصنوع من صخر أسود كثيف ثقيل أو من حديد حى ، الضخم ضخامة لابد تبعث على الدهشة والذهول اذا قورنت بسرعته وقدرته على الاندفاع من الصفر الى سرعة أكثر من المائة كيلو متر فجأة ، وقدرته الأخرى الخارقة على التوقف فجأة أيضا ، والهبوط من المائة الى الصفر مرة واحدة . وليس توقفا فقط ولكنه التوقف والدوران دورة كاملة ثم معاودة الاندفاع من الصفر الى المائة ، وكل هذا يحدث فى لمح البصر ويصدر عن هذه الكتلة الثقيلة الرهيبة الضخمة .

وفى مقابله كان صديقى الميتادور ، عوده له مثل رشاقة ملامحه .. ليس فارع الطول ولكنك لا تحس به قصيرا ، وساقاه تبدوان فى سرواله الضيق اللاصق بهما رفيعتين كنبوتين من نبابيت « الصعايدة » عندنا ولكنهما أيضا تبدوان غير هشتين بالمرة وكأنما صنعتا من خشب الرمان ، سريعتى الحركة بطريقة لا تكاد تراهما

وهما تتحركان حتى لتظهرا وكأنهما ثابتتان ، ولا وجه للمقارنة بين حجمه وحجم الثور . لا يكاد حجمه أو وزنه يعادل طرفا واحدا من أطراف الثور الأربعة ، ولعل هذا ما كان يدفع الثور الى الجنون والى الهجوم بجنون على ذلك الشىء الصغير الواقف أمامه فى الساحة يتحداه ويقف اذا هاجمه ولا يهرب منه أو يخاف ، مستغلا الفارق البسيط الذى ميزته به الطبيعة أبرع وأروع استغلال . فالثور رغم كل جبروته وضخامته يتحرك على أربع ، مسألة قد تبدو غير مهمة اذا كان الثور منطلقا فى جريه الى الأمام ، أما حين يتطلب الأمر استدارة أو انحرافا أو تغييرا للاتجاه تصبح الأطراف الأربعة كارثة معوقة ، ويبدو الثور عندها وكأنه العربة بلا «دركسيون» اذا كان عليها أن تنحرف فلابد أن تصنع قوسا كبيرا .

واذا كان عليها أن تستدير لا تفعل هذا بنقطة كما يفعل الانسان فى الطريق . انه يستدير فى دائرة ويغير اتجاهه بمنحنى وينحرف بقوس ولا يملك كما لا يملك كل بنى مملكته الا أن يفعل هذا الا اذا ملك القطار أن يتحرك بلا قضبان .

وعلى هذه النقطة التى تبدو بسيطة هينة بنيت لعبة مصارعة الثيران بكل مهرجاناتها وتاريخها وآلاف السياح الذين يأتون من آلاف الأمكنة وينفقون [illegible] من

Looloo
www.vb4arab.com

الدولارات لرؤيتها . اجل قدرة الانسان على أن يستدير حين يريد فى نقطة وعدم قدرة الثور على الاستدارة الا فى دائرة .. هذا الفرق بين النقطة والدائرة ، بين المركز والمحيط ، هو الذى يصنع منطقة الأمان التى يحتمى بها المصارع ويضمن ضمانا أكيدا ألا يمسه الثور طالما هو داخلها لا يتعداها . وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حين يقبل مهاجما وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفا فى مكانه ثابتا الى أن يصبح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التى يصنعها الثور اذا دار حول محوره ، أى الدائرة الكائنة بين ساقيه الأماميتين والخلفيتين . على المصارع أن ينتظر الى أن يصبح الثور منه على هذه المسافة ، لأنه لو تحرك والثور على بعد أكبر ففى استطاعة الثور أن يغير اتجاهه وينحرف ويصيبه . أما حين تكون بينهما هذه المسافة وينحرف المصارع ، فان الثور اذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقا أن يصل اليه أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتاز المكان الذى انحرف اليه المصارع حتى أصبح المصارع يواجه منتصف بطنه . وبفرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فورا فهو لا يملك أيضا أن يصيب الرجل ، وعليه لكى يفعل أن يستدير ليواجهه برأسه .

ولو كان يستدير كالانسان فى نقطة ، أى وهو

واقف فى محله ، لأمكنه فعلا أن يسدد اليه الاصابة . ولكنه لا يستطيع أن يستدير الا اذا صنع بجسده دائرة كاملة ، وحين يتم الدائرة ويتهيأ للانقضاض لا يجد المصارع هناك أيضا ، اذ يكون الأخير قد انتظر حتى استدار الثور ثم غير من موقفه بطريقة على الثور فيها أن يصنع دائرة كاملة أخرى حول المصارع ، دائرة المصارع مركزها ، المصارع الذى ينتظره حتى يقارب اكمال الدائرة ليندفع بسرعة وخفة وينحرف جانبا مغيرا من مركز الدائرة مطالبا الثور أن يعود ليصنع دائرة جديدة وهكذا .

سلسلة من المواقف تكون سلسلة من الدوائر التى يدور فيها الثور محاولا فى كل مرة أن يواجه المصارع ليسدد له طعناته بينما المصارع لا ينيله غرضه ، بحيث كلما قارب الثور اتمام الدائرة والهجوم غير المصارع من موقفه قليلا لكى يتحتم على الثور أن يصنع دائرة أخرى ليواجهه ، ولا يتحقق هدفه أبدا لأن المصارع يغير دائما من موقفه فى اللحظة المناسبة .

ذلك هو الأساس أو المبدأ الذى منه تتشعب المباغتة فى المصارعة ويختلف الميتادور عن غيره ، بحيث أن أبرعهم جميعا هو ذلك الذى يجعل الثور يتحرك أكثر وأقوى حركة فى مقابل أقل حركة ممكنة منه .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولذا كلما انتظر الميتادور حتى اللحظة الأخيرة لاكمال الدائرة ليغير موقفه ، أصبح على الثور أن يتحرك أكثر اذ لابد أن يصنع دائرة كاملة ثانية . فى حين أنه لو تحرك فى وقت مبكر ففى استطاعة الثور أن يوفر الجهد فلا يضيعه فى اكمال الدائرة الأولى ومن فوره يشرع فى صنع الثانية . وكذلك كلما قربت المسافة بين موقف المصارع الأول وبين الموقف الذى ينتقل اليه ، ضاقت الدائرة التى على الثور أن يصنعها ، وبالتالى يذل جهدا أكبر كى يجعل كتلته الضخمة تلك تتحرك دائرة داخل هذا النطاق الضيق المحدود .

وهكذا يعتبر المصارع المثالى هو المصارع الذى يستطيع أن يتأخر فى حركته الى أن يكاد الثور يلامسه ، واذا تحرك مغيرا موقفه تحرك أقل مسافة ، أو أروع وأروع حين لا يتحرك بالمرة وحين يظل واقفا فى مكانه بحيث تتضاءل المسافة التى يتحركها حتى تصبح الفرق بين مواجهة الثور بصدره ومواجهته له بجانبه .

ان الهدف من مرحلة الميوليتا كلها هو ارهاق الثور الى درجة الاستسلام .

وهذه الحركات الدائرية المحدودة أشد ارهاقا للثور من أى جرى منطلق فى أنحاء الساحة . ولهذا فبعد بضع حركات كهذه يبلغ الارهاق بالثور المطعون قبلا ، النازف

اللاهث المغروس فى ظهره ستة أعلام تتخر عظمه وتؤلمه ، يبلغ الارهاق به حد أن يكف عن الهجوم أصلا ويقف فى مكانه لا يتحرك ، وحينئذ تصل ثقة الميتادور بنفسه وبما ألحقه بالثور من ارهاق حد أن يغادره موليا اياه ظهره محييا الجمهور الذى تدوى الساحة بهتافاته .

وكنت قد رأيت مرحلة الميوليتا تمر بهذه الخطوات أو معظمها . رأيت الثور يدخلها كتلة حياة تنفجر بالحركة والوحشية والنشاط ، وبطريقة يبدو وكأنها ستظل هكذا الى الأبد وكأن لا شىء هناك قادر على النيل منها . ويظل الأمر كذلك الى أن يدخل الثور فخ الدوائر اللانهائية ، ولا تكاد تمضى بضع دقائق عليه فيها حتى ينقلب لهثه الى فحيح مسموع وزبد ، وحتى يمتد لسانه شبرا من فمه تعبا واجهادا ، وحتى يكاد يسقط من تلقاء نفسه اعياء . بضع دقائق فقط يتولى هو بنفسه قتل نفسه فيها تعبا وارهاقا ، وتتكفل رغبته الغاشمة البدائية فى مهاجمة كل احمر امامه ، تلك التى تدفعه للجرى المهلك حاشرا نفسه داخل دوائر أضيق فأضيق ساعيا وراء سراب العباءة الحمراء ، تتكفل هذه كلها باحالته من كتلة حياة متفجرة الى حياة خامدة ، الى مجرد حيوان متعب لاهث لا فرق بينه وبين الكلب أو الخنزير . رأيت هذا يحدث للثور الأول والثانى والثالث ، أما هذا الثور الرابع ومع صاحبى الميتادور ، فقد رأيت ما لا يكاد

Looloo
www.dvd4arab.com

— ١١ —

كان الشاب ينصب فخ الدائرة باحكام ويظل كأعتى ميتادور الى آخر ومضة فى اللحظة ، الى حين تمس قرون الثور العباءة وتشتبك بها أحيانا .. وأحيانا تمزقها قبل أن يتحرك جانبا ليتفادى من الهجمة من ناحية ، وليصنع من نفسه هدفا آخر لهجمة ثانية ، وبالكاد لا يتحرك متبعا فى هذا أخطر القواعد مجازفا بنفسه ، متهورا فى اتباعها . وكل هذا ليستنفد طاقة غريمه بسرعة ، وليجبره على التحرك بكتلته الضخمة داخل نطاق أضيق دائرة ممكنة الى درجة كان ضيقها يشل حركة الثور أحيانا ، وهو يضغط نفسه ويقترب بنصفه الخلفى من نصفه الأمامى اقترابا تتداخل معه أطرافه ، وكل هذا ليصغر من حجمه كى يصنع بحجمه الصغير أصغر دائرة . انها ليست عملية اجهاد فقط .. انها جهاد عارم القسوة والعذاب لكأنك تعتصر نفسك بجبروت ضاغطا جسدك ليتداخل وتختصر حجمه ، وتفعل هذا كى تنطلق وبأقصى سرعة تتحرك حركة دائرية يبلغ ضيق دائرتها حد أنك

بالكاد تستطيع أن تتحرك ، فما بالك بأن تتحرك فى سرعة وانقضاض .

ولكن الثور كان يفعلها ، ويتحكم فى حجمه الضخم كالرياضى المدرب ويستمر يفعلها . ويلمح جسده المظلم الأسود بالعرق ، وتبرز عظام أكتافه رافعة ما فوقها من لحم وعضلات بادية للعيان فى محاولته ضم نفسه وضغطها ، ولا يتوقف عن الهجوم لثانية ، ولم يكف مرة ولا احتاج للتلويح والاستفزاز .. حتى تحول جزء كبير من التصفيق والهتاف الذى كان يتوالى تحية للميتادور على براعته وحذقه ودوائر الخطر التى يتحرك فيها بلا خوف أو وجل ، تحول جزء من التصفيق والهتاف الى الثور الماضى فى هجومه لا ينال منه تعب ولا يؤثر فى طاقته أى مجهود ، حتى بدا الأمر محيرا .

ان العادة جرت ألا تزيد هذه المرحلة عن دقائق قليلة تنتهى بعدها كل طاقات الثور .. دقائق نادرا ما تتعدى الخمس ، وها قد مضت عشر دقائق وربع ساعة بأكمله والثور لم تتغير قدرته الا قليلا ، من القلة بحيث يبدو التغير غير ملحوظ .

ولكننى كنت الوحيد تقريبا المشغول بهذا الحساب قلقا على صاحبى ، أما جماهير المتفرجين فالصراع الدائر كان يستغرقهم كلية ، وانتباههم كله موكز فى

www.dvd4arab.com

الحركة الحادثة امامهم فقط ، فى ذلك الجزء من الصراع الذى يرونه بأعينهم الآن ، وانفعالهم الشديد لا يدع لهم فرصة استرجاع ما حدث من دقيقة أو اعادة تدبره ، ولا ما يمكن أن يحدث بعد قليل . وكذلك لا تهمهم حالة الثور أو حالة الرجل ، المهم انهما لا زالا يتصارعان صراعا قويا ممتعا حادا من النادر أن يظفر به جمهور واحد فى يوم واحد ولمدة طويلة كهذه . الثور شحنة الطاقة فيه خالدة لا تنفد ، تدفعه وتثنيه وتفرده وتقبضه وتشكله عشرات ومئات الأشكال حسبما تقتضيه ظروف المعركة ، جسورا لا بنى ولا يرحم ولا يتردد ، كثيرا ما يتجاوز تقديرات الميتادور ويستدير بسرعة أكبر مما قدر وأكبر من أن تصدق ، أو يختصر محيط الدائرة وكأن جسده استحال الى جسد ثعبان ليس أسهل من أن يستدير ويلتف ، ويكاد يوقع كلما حدث هذا صاحبنا الميتادور فى الفخ الذى أراده له . وكثرة المرات لا تنال منه بل تزيده قوة وهياجا واصرارا حتى تكاد تجعل له اليد العليا فى الصراع ، وتحيله الى مطارد ونحيل الميتادور الى مجرد مدافع عن نفسه ليس أمامه الا أن يهرب ويظل يهرب .. والميتادور هو الآخر فى قمة نشاطه وصلاحيته ، ان كان قد اعتمد فى ضبط خطواته الأولى على رصيده السابق من البطولة وعلى الزهو الذى حصل

عليه منذ وقت قليل لقتله الثور الأول فى لمح البصر ، فبمضى الصراع تناسى زهوه ورصيده وخاض معركته مستمدا منها نفسها الوحى والقدرة وحكمة التصرف . ولم يكن يستعرض ، ولكنه فى كفاحه الرهيب من أجل أن يقهر غريمه يقدم ألوانا من المصارعة قد لا يكون لها جمال ألوان الاستعراض الخارجى ، ولكنها تحتوى على فن وخطورة لا تجدها فى أروع الاستعراضات .

كان يستغل دقة حجمه الى أقصى حد بحيث كان يرغم الثور على الدوران فى دائرة لا تتعدى المتر أحيانا ، حتى لتكاد تؤمن أن عظامه لحظتها تتهشم وتسمع قرقعتها . وكان يعمد الى التغييرات السريعة فى تكتيكه لادراكه ان الثور حين يستمر على طريقة يتقنها بسرعة وذكاء غريبين على كائن مثله ، فكان يغير من طريقة الى طريقة بحيث لا يترك لغريمه أى مجال للتعود والاتقان . وحين وصلا الى طريقة الدوائر أخذ يضيق على الثور الخناق واستغرق فى هذا الى درجة لم يلحظ معها أن الثور أيضا يضيق عليه الخناق حتى أنه توقف فى مكانه عن الحركة ليجعل الثور يدور حوله مكتفيا بتغيير اتجاهه لتغير وقفته والمركز الذى يدور فيه .. وكان صعبا أن تحدد فى تلك اللحظة من منهما الذى يحاصر الآخر ويضيق عليه الخناق ! ولكن بدا فى اللحظات

Looloo
www.dvd4arab.com

الأخيرة للحركة أن الثور هو الذى يفعل وأن أمام صاحبنا أخطر مشكلة ، أن يتخلص فورا من هذا الحصار • وربما لو فكر عاما بأكمله وهو بعيد عن الساحة والموقف لما وصل الى الحل الذى اهتدى اليه ، وكأنما بالغريزة فى نفس اللحظة التى وضح أن الثور فى هجمته التالية سيصيبه دون أدنى شك •

والطريقة أنه غير فجأة من دورانه •• أى أقدم على مغامرة مجنونة • اذ بهذا التغيير أصبح الثور يواجهه بحيث لم يعد بينه وبين رأسه الا أقل من متر ، ولو قد فطن الثور الى أنه سيفعل هذا لوفر على نفسه مشقة عمل دائرة أخرى ولطعنه بقرنيه فى الحال • ولكنه يبدو أنه فعلها وهو متأكد تماما أن الثور مستغرق فى اللف بالطريقة التى اعتادها فى الفترة القصيرة الأخيرة ، وأنه لن يفطن اليه الا بعد أن يكون قد ابتدأ فى الدورة الجديدة ، الا متأخرا بجزء على مائة جزء من الثانية • وحتى لو لم يكمل الدائرة الجديدة واتجه اليه من فوره فيكفيه هذا الجزء على مائة لكى يفلت من الحصار الخانق ويكسر الدائرة الرهيبة التى أرادها الثور فوقع فيها • وهو بالضبط ما حدث ، وما انتقل بعده هكذا فى واحد على مائة من الثانية من انسان انتهى أمره الى انسان حر طليق ، الساحة كلها تحت أمره •

حركة أرعدت على أثرها المدرجات تصفيقا وصياحا كصياح من فقدوا العقول • ان أحدا لا يصدق ما حدث أمام عينيه ، لا يصدق أن هذا الشاب النحيل قد أوتى وهو على وشك الموت هذه الشحنات القوية من الجرأة والذكاء وسعة الحيلة لكأنه لخص تاريخ اللعبة وتراثها والهدف منها •• اذ ذلك هو بالضبط ما أراده الذين ابتكروا المصارعة ، وذلك بالضبط ما يريده الجمهور •• أن يخوض انسان بطل فيه كل مؤهلات الجانب الانسانى الصراع ضد ثور بطل فيه كل مؤهلات الجانب البدائى الوحشى ، ويظل الصراع بينهما سجالا أو يكاد بحيث لا تحدث المواقف الفاصلة نتيجة ضعف أحد الطرفين ، وانما تنتج رغما عن الاثنين معا وبسبب تعادل قوتهما فى الصراع • وحين يحدث ذلك الموقف الفاصل الاجبارى ويصبح على الانسان فيه أن ينقذ نفسه فعليه ألا ينقذ نفسه كيفما اتفق وبأية وسيلة ، وانما عليه أن يختار أكثرها جرأة وحذقا وذكاء ، أن يختار الطريق البطولى بحيث لو نجحت وأنقذ بها نفسه استحق البطولة عن جدارة ، وبحيث لو فشلت ومات اعتبرت ميتته ميتة أبطال وخلد ذكره •

وقد يكون هذا كله حقيقيا ورائعا وجميلا ، وقد تربى أشياء كهذه الشعب وترسى فيه دعائم البطولة الانسانية

Looloo
www.dvd4arab.com

كما يجب أن تكون فى عصور أصبحت فيها هذه البطولة أثرا من آثار التاريخ لا تعثر عليها الا فى المتاحف والكتب • فهذه الأنواع من البطولة •• بطولة أن يواجه الانسان الخطر بقلب جرىء ويرى الكارثة أمامه تهدد حياته فيقتحمها غير هياب أو وجل • بطولات كهذه خلقتها وغرستها العصور التى كان المجتمع فيها يعتمد على الانسان الفرد ويهمه أن يمجده ويجعل منه البطل ، عصور الآحاد القليلين الكبار • بطولات كهذه اندثرت وحلت محلها أنواع أخرى وأنماط ، أنواع نابعة من مجتمعات ازدحمت ولم يعد الفرد فيها يواجه القدر أو الحظ أو العدو وحده • العداوات أصبحت جماعية ، والمواجهات جماعية •• والعصور عصور الأفراد الكثيربن الصغار • وقوى الطبيعة المتعددة التى استؤنست على هيئة آلات كما استأنس الأجداد الحيوانات البرية والوحوش • عصور القوة التى لا تتركز فى شىء واحد بعينه حتى لو كان فردا نابغة عظيما هرقلى القوة ! القوة فيها موزعة متشابكة متعاونة أو متنافرة ، قوة مستحيل أن تحددها أو تعزلها ، ولهذا فمجال البطولة لم يعد أن يواجه الانسان وحده الغريم وببطولة يصرعه ، اذ الغريم هو الآخر لم يعد فردا او شيئا بعينه ، الغريم هو الآخر مجموع قوى منبثة فى مجموعات من الكيانات • لمن

يصفق الناس اليوم ؟ لم يعودوا يصفقون لمن يصرع عدوه • فبالأمس كان يوجد متصارعان ومشاهدون محايدون •• اليوم لا يوجد متفرجون ولا حياد ، وأى معركة تدور اليوم على سطح الكرة الأرضية لابد أن تجد نفسك منضما الى أحد طرفيها • وحتى التصفيق اعجابا لم يعد علامة اعجاب مطلق •

انها تصفق باعجاب له هدف ، تصفق لمن يقدم لها ببطولته المصلحة والخدمة العظمى • الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة أو بأخرى ، من يسيطر على أكبر قدر ممكن من مصادر القوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للناس مطالب وأعمالا عجز غيره عن تحقيقها • وهى بطولة أرقى ! ففى الماضى كان الشخص يقوم لنفسه ولمجده ولذاته فيصفق له الناس ويمنحونه لقب البطولة ، ولكننا فى عالمنا الحاضر نمنح البطولة لمن يقوى لنا ولفائدتنا •

ولهذا فأنت فى مصارعة الثيران تحس كلما حمى الصراع هكذا وحدث التجاوب على تلك الصورة ؛ تحس كلما اقتربت اللعبة من حقيقتها ومن الهدف الذى وجدت لأجله شعرت انك تنفصل عن عالمنا هذا ، انك ترتد الى ماض تهب ريحه حاملة معها أصداء من زمن ذهب وقيم تغيرت • أى رجل فى عصرنا الحاضر ممكن أن يفعل

Looloo
www.dvd4arab.com

وهو مالك لكل قواه العقلية ما فعله صاحبنا الميتادور ؟ أى رجل على استعداد لأن يقف ليواجه قطارا من العضلات الوحشية القاتلة قادما تجاهه ليفاجئه ويجبره على الدوران ؟ أى رجل فى عصرنا الحاضر ، حتى لو أراد هو ، تطيق أعصابه ويطيعه قلبه وفكره والهامه وهو يواجه الموت فى وضح النهار وكل حظه فى الحياة متوقف على أمل واهن غير مؤكد أن يفاجأ الثور بالحركة فعلا وتنجح الخطة ؟ ماذا اذا لم يفاجأ ؟ ماذا اذا استدار الثور فى لحظة مناسبة أو انزلقت قدمك أنت وأنت تستدير بسبب حصاة صغيرة ، حصاة موجودة فى الساحة بالآلاف والملايين .

وكل هذا من أجل تحية اعجاب واعتراف بالبطولة ؟ .

بمنطق عالمنا الحاضر ، وبمنطق الانسان الجالس على مقهى مع ثلة من أصحابه ، بمنطق سائقى التاكسى أو سكرتير النقابة ، وحتى بمنطق المدله حبا فى روايات طرزان ومغامرات رجال العصابات ، بمنطق الأم والعمة والخالة ، بمنطق عالمنا الحاضر ، المسألة كلها سخافة وجنون وقلة عقل . شىء لا يمكن أن يقبل أو حتى يحلم بقبوله أى كائن عاقل معاصر أو حتى نصف عاقل . عمل لا يمكن أن يوصف بالبطولة ويقدر الا فى عصور كعصور عنترة بن شداد أو أيفان هو

وروبين هود .. وذلك هو ما تحمله رائحة الماضى التى تهب من الساحة وعليها ، ورغم أن الناس والأزياء والمصارعين والثيران وكل شىء عصرى من عمل عصرنا ونتيجته ، الا أنك تحس بدوى الأبواق وظهور الموكب وملابسه وتقاليده الراسخة من قديم الزمان ، تحس تماما مثلما يحدث لك فى السينما والمسرح . ان اطفاء النور والافتتاحية الموسيقية تنقلك من واقعك الى واقع الرواية بحيث تجوز عليك الخدعة المتفق عليها وتعيش أحداث الرواية وكأنها حقيقة وليست أبدا من صنع الخيال .

الشىء نفسه يحدث فى المصارعة ، وتتكفل أبواقها وموكبها واجراءاتها الأولى بنقلك أنت والساحة وكل ما عليها من الحاضر الواقع بكل قيمه وأنواع بطولاته الى عالم مضى تحياه وكأنه حاضر ، وكأنهم يحضرونه لك لتحياه على أنه ماض حاضر .. ولكن ليس فى الأمر خدعة متفق عليها . الصحيح أنها حقيقة متفق عليها . صراع حقيقى يدور أمامك ، من فرط صدقه واندماج أطرافه تندمج أنت الآخر وتتبنى الأسس التى يدور حولها الصراع وتتحمس للقيم التى تحدد أحكامك له أو عليه .

اندماج لا يحدث فى العادة بسهولة ولا يتم فجأة

Looloo
www.dvd4arab.com

أو ببساطة ، فهو يستغرق زمنا وشدا وجذبا بين أن تسلم وتصدق وبين أن تستسخف وتكذب • اندماج فى الحقيقة لا يتم بارادتك أبدا وانما أنت تجبر عليه ، تجبرك عليه الحراب والمآزق والدم النازف والخطورة التى تحدق بالمصارع لدى كل خطوة • وأن ينادى شخص بمبدأ ما بمجرد كلام ربما لا يدفعك هذا للاقتناع به ، ولكنك لابد تغير من رأيك حين تراه يخوض المعارك الدامية من أجل هذا المبدأ فيعرض نفسه لخطورة الموت ببساطة دفاعا عنه •

وهكذا بنفس منطق اللعبة ، بالقوة ، تجد نفسك فى ردة حضارية تحياها كاملة وتقتنع بها تماما حتى لتبدأ تتحمس وتنفعل لما كان يتحمس له وينفعل الأجداد الأول ، وتشمئز مما كانوا منه يشمئزون ، وتمنح البطولة أو تقبضها على نفس الأسس والقيم التى كانوا بها يمنحون أو يقبضون •

ومعظم الناس تنتهى ردتهم بانتهاء المصارعة ، وحين يعودون الى حياتهم الطبيعية يزاولونها كما كانوا قبلا يفعلون بقوانين العصر وتقاليده ، بمقاييس الناس الكثيرين الصغار فى عالم يومهم المزدحم • معظمهم يعرفون كيف يفرقون بين الساحة والحياة فينسون حماسهم الشديد للبطولة من أجل البطولة على باب

الأرينا ، وهم أنفسهم الذين بحت أصواتهم هتافا للمصارع وهو يضحى بحياته من أجل أن يمجد قيمة أو يقوم بعمل من أعمال البطولة ، هم أنفسهم الذين لا يتورعون عن الكذب فى اليوم التالى والخداع واستجداء الشفقة وازجاء الملق للرؤساء • هذه مسألة وتلك مسألة أخرى • هذه ساحة بطولة وأبطال وتلك ساحة حياة لا بطولة فيها ولا أبطال •

وهناك قلة من الناس تفشل فى الاندماج والتصديق ، يأبى خيالها الضيق أن يرتد وأن يتصور شيئا آخر غير ما يزاوله فى حياته ويؤمن به ويراه • من أجل هذا تغادر الأرينا كما دخلتها ساخرة من كل ما رأت ومن الدم الذى سال بينما تعليقاتها لا تتعدى الحاضرين والحاضرات ، وعدد الفاتنات ، وهل رأيت فلانة نجمة هوليوود ، والشىء الوحيد الذى يؤلمها هو ثمن الدخول اذ بنفس قيمته كان من الممكن للواحد منهم أن يحتسى بضع زجاجات بيرة تعود عليه بالانبساط ، أو يأكل أكلة ساخنة تغذى جسده غذاء حقيقيا مضمون الفائدة •

أما أقل القليل فهم أولئك الذين تتأخر عودتهم من تلك الردة التاريخية بعض الوقت ، اذ تكون التجربة التى خاضوها شديدة الوقع عليهم وعلى تفكيرهم الى درجة ليس من السهل أبدا التخلص منها •

Looloo
www.dvd4arab.com

أولئك الذين يغادرون الأرينا وثمة زلزال قد حدث لعقولهم ، تحطمت على أثره أشياء فى تفكيرهم وارتبكت أشياء • يخرجون وليسوا هم نفس الأشـــخاص الذين دخلوا ! لقد دخلوا مجرد قادمين من عالم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواصفاته للبطولة ، وها هم قد خرجوا وقد أتيح لهم أن يحيوا فى عالم آخر ملك عليهم تفكيرهم بحيث لا يستطيعون التخلص من أثره ، وبحيث يقضون أياما كثيرة بعدها طلاب بطولة على نسق التى رأوها ، وباحثين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان • وكأن الأرينا بالنسبة اليهم اكتشاف فى عالم هم يحتقرونه ويشمئزون من علاقاته البشرية ومخازيه الكثيرة وضعف الرجال فيه • ها هم يساقون الى حيث يجدون فى تلك الواحة التاريخية نموذجا حيا صـــادقا لعصر بطل ، فتسكرهم النفحات ويتمنون أن يبقوا الى الأبد هنا ، أو حين يضطرون الى مغادرة الساحة الى احالة عالمهم الحاضر كله ليصبح على شاكلة تلك الواحة •

ولكنها دفقات الانفعال الأولى والحماس ، فما هو الا يوم أو يومان وتبتلعهم الدوامة مرة أخرى واذا بهم يعودون آحادا من ملايين الصغار الكثيرين الذين يزدحم بهم عالم اليوم الصغير • كل المجهود الايجابى الذى تقوم به اراداتهم تمسكا بهذا العالم وحبا فيه ان نفوسهم

بعد حين تبدأ تهفو وتلح مطالبة بعودة أخرى الى عالم الساحة والبطولة ، وشيئا فشيئا يصبحون زبائن المصارعة المستديمين •

غير أنه كما هى الحال فى كل أمر مشابه ، تجد هناك دائما أشخاصا نادرين أندر من أن تصدق وجودهم •• لا يفعلون كهؤلاء أو كأولئك • هذه القلة النادرة يبهرها عالم الأرينا ويستبد بها ، وتجتمع عوامل كثيرة أولها ارادة وطبيعة ثورية غير مدربة على الخضوع بل متعتها الكبرى أن تعارض وتعير وتخرج عن الحد المرسوم •• وثانيها علاقات واهية بالعالم المزدحم الصغير •• علاقات ليست من القوة بحيث تجذب وترغم وتكبح جماح الارادة وتظل وراء الثورى حتى يقنع نفسه أن قمة الثورية هى الخضوع •• وثالثها استعداد طبيعى يأخذ شكل الرغبة الجامحة • هذه القلة النادرة تشاهد المصارعة مرة لتظل الى الأبد تحياها وتحيا عالمها البطل بكل ما فيه من سحر وقيم • وسرعان ما تجدها قد انضمت الى هذا المجتمع المحدود الضيق •• مجتمع المصارعين الذى لا يرحب كثيرا بالغرباء ، والذى تجد كل من فيه ، أو بالأصح تجد معظمهم ونوابغهم متصوفين فى محراب هـــذه الردة التاريخية •• ومنتهى أملهم فى الوصول أن يكافحـــوا أنفسهم ونزواتهم والمغريات الصغيرة الكثيرة من حولهم

Looloo
www.dvd4arab.com

لتتشابه حياتهم داخل الدائرة الرمنية مع حياتهم خارجها .. لتكون حياتهم سلسلة متصلة الحلقات من اقتحام المخاطر وخوض الأهوال ، من النخوة والشجاعة والمواجهة والاصرار على الانتصار .

وكثيرون منهم يفشلون . أنهم جميعا أبناء فقراء وأحيانا بلا آباء ، خرجتهم طفولة محرومة وصدهم وعاداهم المجتمع صبية وشبابا ، وفى المصارعة عثروا على أنفسهم .. على الوسيلة التى يستطيع بها الشاب النكرة اليتيم أو ابن الحرام الجائع العاطل أن يفرض نفسه على المجتمع بكل ملايينه وثرائه وطبقاته ، وكما يأتى الانتصار ومن ثمة البطولة فى المصارعة باختيار الموقف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التغلب عليه بعد هذا واقتحامه ، فهم أيضا فى سبيل فرض أنفسهم على المجتمع الذى حرمهم كل شىء يختارون الطريقة الأخطر .. أخطر طريقة ، العمل كمصارعى ثيران ، ذلك الذى يعرضون أنفسهم فيه للموت الأكيد كل لحظة ثم لا يموتون ، يقهرون الموت وينتصرون ، وينحنى لهم المجتمع معترفا ومتحمسا ومصفقا .

والفشل يلحق البعض بل الكثرة ، متسللا من نفس الطريق الى المجد ، من نفس الدوافع التى حدت بالشاب المحروم أن يمتهن المصارعة ليصبح بطلا ويشبع بعض

حرمانه . من نفس هذا الطريق يدب سوس الفشل ، حين يسكر الميتادور بخمر البطولة وتصبح المصارعة عنده ليست غاية على استعداد من أجلها أن يصون نفسه وارادته ليصبح أقوى وأكثر قدرة على التحكم فى ذاته ، ولكن تصبح المصارعة بعد الوصول الى القمة مجرد وسيلة لا تخدم نفسه بعد حرمانها الطويل .

واذا كان بعض النساء وبعض الخمر وبعض النقود تحفز همة نجم المصارعة الى الصعود ، فان ما يهوى به هى جرعات أكبر من هذه العقاقير المحفزة نفسها ، ولابد أنه مثل صادق ذلك الذى يقول : ما كان قلياه يحفز فكثيره يضيع ويفقد .

Looloo
www.dvd4arab.com

- ١٢ -

كانت المعركة بين الثور وصاحبنا ومحاوراتهما قد أخذتهما بعيدا عن مقاعدنا الى الناحية الأخرى • والقرب والبعد مسألة مهمة ، لا لامكان متابعة الصراع عن كثب وملاحظة كل تفاصيله ولكن لأن وجودك بعيدا عن الصراع يقلل من انفعالك بهدون أن تشعر ، بحيث تراقبه وليس بينك وبينه مسافة مترية فقط ، ولكن مسافة نفسية أيضا تجعل الصراع يصلك وكأنه أخبار تنتقل اليك • أما وجودك على مقربة من المعركة فهو يجعلك رغما عنك تشترك فيها وتحياها ، تماما مثلك حين تمر بخناقة بعيدة مهما بلغت قوتها فلن يصل اهتمامك بها الى حد التوقف أو التوجه اليها ، وحين تمر بالخناقة على نفس رصيفك فانك رغما عنك تتوقف وتصبح جزءا منها •

وهكذا تكفلت المحاورات المتصلة بنقل مركز الصراع بحيث أصبح فى الجزء من محيط الدائرة الرملية الذى يلاصق مقاعدنا ، أصبحت المعركة بالنسبة لجمهور مدرجاتنا كله أكثر جدية ورهبة ووحشية • كان الثور

حين يقبل مهاجما نحس لقربنا الشديد أنه لا يصوب قرنيه الى الميتادور وحده ولكنه يصوبهما الينا أيضا ، وكأن الميتادور متفرج معنا متطرف المقعد أو الوقفة ليس الا • وحين كانت المعركة بعيدة كنا نتفرج ونتحمس أو يهبط حماسنا تبعا لما نراه من حركات •

ولكننا هنا فقدنا القدرة على التفرج ، شلت أكفنا وحناجرنا عن أن تصفق أو تهتف ، أصبحنا كصاحبنا المصارع نتنهد فرحة كلما نجح فى الافلات من هجمة وتدق قلوبنا برعب حقيقى حينما يضيق عليه الثور الخناق ويقبل ، وكأنما للمرة الأخيرة التى جهز فيها نفسه على أن يضرب الضربة القاضية وقد أصبح وجهه قريبا باستطاعتنا رؤية تفاصيل ملامحه •

يا لبشاعتها حين يقبل متخذا بها سحنة الضربة القاضية • لقد اكتشفت وأنا أتأمل ملامحه وأفعل هذا ربما للمرة الأولى فى حياتى ، ونادرا ما يحدث لنا أن نعيد تأمل ملامح أى كائن من الكائنات التى تعودنا رؤيتها ، نادرا جدا ما نلقى نظرة فاحصة واعية نراجع بها شكل القطة فى نظرنا مثلا • هذا الثور ، لقد آمنت أنه أبشع المخلوقات شكلا ، وكل ما فى ملامحه كتل كروية بشعة اللون والتكوين ، كرتان بارزتان من جانبى جبهته ثعبانيتى اللون على هيئة عيون ، وكرة ذات فتحتين

Looloo
www.dvd4arab.com

موضوعة على بعد كبير من الكرتين لتكون الأنف .. أى أنف .. وفم ليس سوى شق واسع قبيح يشطر ذلك الشيء المستطيل بلا معنى ، المثلث بلا هدف ، الى شطرين وكأنما هى كتلة خشب لا تصلح من بشاعتها لشيء قام نجار غبى بشقها بلا هدف أيضا ، ووسع الشق باسفين ، هو ذلك اللسان الممدود ، ناهيك حين تنقلب هذه الملامح البشعة تحت تأثير الهياج والرغبة البدائية الوحشية فى التحطيم والقتل والتخريب ، حين تتفتح على آخرها ثقوب الأنف وتنقلب حوافها الى أعلا وترتعش منقبضة منبسطة . وحين تحمر كرتا العينين وينقلب الشعبانى الأصفر الى لون الدم ، ويصبح الوجه المستطيل المغبى أكثر استطالة وغباء وحمقا ، وشق الفم أكثر اتساعا واسفينه اللسانى قد تدلى وارما متضخما يسيل منه اللعاب . لعاب كثير يسيل من اللسان ومن الفم والأنف وحتى من العينين ، وتتساقط السوائل كغضب سائل ، كنقمة ذلك الوحش الكاسر تلفظها عيناه ، وتتفصد من كل عظمة وعضلة وظلف فيه .

كان المنظر يرعب حقا ويدفع الفتاة الكوبية للتشبث بحديد السور وكأنما تستغيث مروعة استغاثات مكتومة ، لا تحاول هى وحدها بل يحاول الجميع كتمانها كل على طريقته .

وكان الثور يلهث ، وهو طوال الوقت يلهث ، ولهثه كان أبشع من أى شيء سمعته أو تسمعه أذناك . لا ، ليس خوارا ولا شخيرا وانما شيء كالشهقات المتقطعة المخنوقة التى تنبعث ليس من التنفس وانما من معاناة الألم العظيم . صوت خشن منخفض مكتوم متوال على هيئة لهث منتظم متزايد السرعة تقشعر له الأذن نفسها حتى قبل أن تنقله الى مراكز الاحساس العليا ليبعث القشعريرة فى الجسد كله ، صوت لابد يذكرك لا بشيء سمعته فى حياتك او حياة آبائك واجدادك ، ولكن بأصوات المخاطر البدائية الأولى حين كنت انسان الغابة وحيث لا تزال بقايا عقلك البدائى تحتفظ بأمثال هذه الأنات وبأصدائها ، وترتعش رعبا اذا استعادتها رغم ملايين السنين من التطور والتغير والتاريخ .

وكانت قد مضت عشرون دقيقة على بداية « الميوليتا » اعتبرها الأسبان المتناثرون حولنا فى لحظات الراحة التى كانت تتم رغما عنا ، وبسبب غشل أجهزتنا وقوانا فى القدرة على استمرار المتابعة وتركيز الانتباه مع الانفعالات الهائلة المروعة التى تصاحبه ، لحظات راحة تتبدى على هيئة تعليق طال كبته ، أو آهة مسموعة تنطلق بلا أوان ، أو كلمة لا معنى لها تصدر عن صاحبها بلا وعى أو هدف . اعتبرها هواة اللعبة الأسبان رقما

Looloo
www.dvd4arab.com

يحطم غيره من الأرقام من ناحية الزمن ، ومن ناحية القدرة اعتبروها معجزة • فلم يحدث فى تاريخ اللعبة — أو على الأقل تاريخهم فى اللعبة — أن رأوا ثورا يستمر هذه المدة كلها يهاجم بلا توقف وبلا اجهاد يجبره على الاستسلام • وكذلك لم يحدث أن بقى مصارع وقتا طويلا كهذا حافظا لقوته وخفته وتوازنه •

وكأنما الخاطر كان يدور فى العقول كلها فى آن واحد ، اذ بلا مناسبة ومن غير داع ودون أن يحدث فى المعركة ما يستحق ، دوت الأرينا كلها وفى وقت واحد بموجة تصفيق مرتفعة مدوية تحس أنها ليست موجهة الى طرف دون طرف ، انها موجهة للاثنين معا تحييهما وتحيى معهما البطولة التى جاوزا بها الحد المتعارف عليه ، اذ لولا صمود كل منهما ما ظفر الآخر •• موجة تصفيق ما لبث أن انحسرت وانتهت •

ففى تلك اللحظة انزلقت قدم الميتادور وسقط على الأرض ، فى نفس الوقت الذى كان الثور فيه يستدير ليواجهه •

وكعربات النجدة السريعة اندفع المصارعون المختبئون خلف العواض الخشبية •

وتحرك الفرسان نحو باب الدخول ، وطار الى جزء

السور القريب من المعركة صبيان الملعب بالحراب الطويلة •

وكانت قلوبنا — نحن الملاصقين للمعركة — تقفز من صدورنا الى الساحة حيث تمنع الكارثة •

ولكن صاحبنا كفى الجميع مئونة أية خطوة أو اجراء آخر ، فما كاد يسقط ويلامس جسده الأرض حتى كان قد اعتدل ، والوقت كان كافيا أمامه ليقف ويواجه الثور المقبل على قدميه ، ولكنه شاء لست أدرى لم ؟ ربما ليزيل من النفوس لمحة الاشفاق التى صاحبت سقوطه ، وربما ليستأنف المصارعة لا على نفس المستوى الذى سقط عنده وانما على مستوى أعلا وكأنما ليجعل من السقطة الى أسفل سقطة الى أعلى ، ليمضى صاعدا باستمرار فى أعين جمهوره •

شاء أن يواجه الثور وهو على ركبتيه نصف واقف •

ولكنه لم يجلب لنفسه سوى اللعنات ، وما أغرب هذا الجمهور الذى يظل يطالب ويلح فى المطالبة بالمواقف الخطرة ، الجمهور الذى يحرض على اقتحام الخطر هو نفسه الذى يستنكر أن يقوم صاحبنا بحركة خطرة كهذه • ولكن يبدو أن الفترة التى قضاها صاحبنا يصارع ذلك الثور الجهنمى ، وبيدى فى صراعه آيات بطولة حقيقية دون أن ينتظر أحدا ليحرضه على اقتحام الخاطر

Looloo
www.dvd4arab.com

انما هو من تلقاء نفسه يقتحمها ليخرج منها سايما ظافرا ، هذا كله جعل الجمهور يؤمن أنه أمام بطل حقيقى من أبطال المصارعة ، أمام بطل نادر .. بطل لم يحظ باعجابه فقط ولكن ها هى ذى اللعنات التى تنصب عليه تثبت أنه ظفر أيضا بما هو أصعب من الاعجاب بكثير ، بالحب .. حب الجمهور له ، الحب الذى وصل الى درجة الاحساس بالتملك والحرص ، فها هو الجمهور الذى يحرض المصارعين الذين لا يعرفهم على تعريض أنفسهم للخطر مع احتمال أن يذهبوا ضحية سهلة للتحريض ، ها هو نفسه أصبح يحافظ على صاحبنا ويقلق على مصيره ويحرضه هذه المرة على المحافظة على نفسه .

استنتاج دفعنى للاحساس بنوع من الزهو ، فها هو الشىء الذى قدرته من أول رؤية لصاحبى ، هذا الشىء الذى ربطنى به من أول دقيقة ودفعنى من أول دقيقة أيضا كى أتابعه وأقلق عليه وعلى مصيره ، ها هو ذا تثبت صحته ويثبت أنى كنت على حق . ها هى الخيوط ، ثلاثون ألف خيط تمتد من ثلاثين ألف نفس وتربطهم به ، ها هو الاحساس الذى كنت أحسه وحدى يشاركنى فيه آلاف ، آلافهم جميعا ، حتى الفتاة الكوبية التى سود دماءها منذ هنيهة ، ها هى ذى تبدو وكأنها نسيت كل

شىء أو غفرت وراحت باهتمام يكاد يعدل اهتمام كافة البشر تتابعه وتجن قلقا عليه .

كانت مواجهة الثور على تلك الصورة عملا بطوليا حقيقة ، ولكنه يتطرف ليصبح نوعا من البطولة المبالغ فيها التى هى والحمق سواء بسواء . فالثور لم يكن منهكا أو فاقدا الكثير من طاقته ، والصراع كان يدور سجالا بينهما بحيث يبدو ألا حل للموقف الا أن ينتهز أيهما أية فرصة أو ثغرة يقدمها الآخر ، والركوع على الركب يعطى الفرصة كاملة للثور ويهبط بقدرة المصارع الى ما دون النصف بكثير ، وهى حركة لا يجرؤ المصارعون على القيام بها الا قرب نهاية النهاية وحين يكون الثور قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت تعبا واجهادا .

وأقبل الثور بأسرع مما يتوقعه أحد ، وكأنما غذت سرعته فرحة القرب من لحظة الفوز ، وبدا الموقف خطيرا الى أبعد درجات الخطورة ، وكأنما الميتادور نفسه قد أدرك مدى خطورته وسخافة اقدامه على الحركة . وتصاعدت صيحات التحذير والتأوه والاستغاثة ، ولمحت المئات يضربون جباههم بأيديهم تعاسة ويأسا واحساسا بالخسارة ، ودقات القلوب ، الثلاثين ألف قلب وهى تتلاحق وتتعالى مضت تنطق بما لم تكن الأفئدة تجرؤ

Looloo
www.dvd4arab.com

على البوح به ، بأنه ضاع وانتهى • اذ أين المفر ؟ وكيف النجاة ؟ والثور ينقض ولا وقت للعدول عن الحركة ولا وقت للوقوف ولا أمل فى النجاة •

شىء واحد فقط يطمئننى ، ان الهامى لم يهمس لى أنه سيموت •

دليل تافه وغير علمى وسخيف ، ولكنه كان كل ما لدى فى تلك اللحظة لأتمسك به •

وانقض الثور على العباءة محنيا رأسه •

وانثنى الشاب بآخر ما يستطيع من مدى الى ناحية انثناءة جعلت ساقه اليسرى تستقيم •

وهكذا مر الثور هذه المرة دون أن يصيبه بأذى •

ولكن هذا كان أمرا شبه متوقع ، فالخطورة فى الحركة التالية حين يستدير الثور فى طرفة عين ويقبل مهاجما من الناحية الأخرى ، اذ حينئذ سيأتى الهجوم من ناحية ظهره بينما هو راكع على الأرض غير قادر على الحركة أو الاستدارة • ان الرد الوحيد أن يقف ويستدير ويواجهه ليستطيع أن يحدد اتجاه هجومه ويتنحى عنه ، ولكنه رد مستحيل فالوقت الذى سيأخذه للقيام بكل هذه الحركات أضعاف الوقت الذى سيستغرقه الثور للاستدارة والهجوم •

هكذا كان يبدو الأمر للجمهور ، وهكذا حدث لنا ذلك

الصمم الغريب وكأن الأذان نفخت بهواء ساخن مضغوط •

ولم نعرف ، ويبدو أننا لن نعرف الى الأبد كيف حدث هذا ، اذ فى نفس اللحظة التى كان الثور يستدير فيها كان الميتادور الشاب قد وقف على ساقيه •• وهكذا حين أقبل الثور مهاجما وجد أمامه المصارع محددا خط هجومه مستعدا للتنحى فى الوقت المناسب • خيل الى أنه فى تنحية الأول حين استقامت ساقه اليسرى وقد مر الثور ارتكز على اليمنى وحشد كل قواه حتى ارتفعت به عضلاتها وكأنها آلة رافعة الى مستوى الوقوف • ولكنه مجرد فرض ، فالقيام بحركة كهذه فى حاجة الى قوة عظمى تسرى فى الساق فى تلك اللحظة ، قوة خارقة كالمعجزة لا يمكن لانسان ما مهما بلغت قوة ارادته أن يستحضرها ، لابد لها أن تأتى ان كانت ستجىء من تلقاء نفسها ، كأى معجزة لا تواتى الانسان الا فى حالة الضرورة الحيوية القصوى التى يستدعيها لانتشال نفسه من لحظة موت مؤكدة •

ولم تجتح الأرينا كما توقع الجميع موجة تصفيق عارم ، لم يتصاعد هتاف فالناس تصفق وتهتف للبطولة ، أما المعجزة فالرد الوحيد عليها هو الانبهار والذهول •

واستمرت الميوليتا •

Looloo
www.dvd4arab.com

- ١٣ -

عشر دقائق أخرى استمرتها بحيث لم يعد هواة الاحصاء يحسبون أو يعجبون ، وبحيث كان الجمهور نفسه هو الذى أصابه التعب والاجهاد حتى كاد يلهث وهو يتفرج ، بحيث شبع الناس من آيات البطولة ومآزق الخطر كجائع مضى يلتهم الطعام حتى أصيب بالتخمة وبدأت نفسه تعاف الطعام ، ولم يعد يهمه الا أن تنتهى هذه المرحلة ويحين الوقت كى يغرس المصارع سيفه بين ضلوع الثور ويخلص عليه ويخلصهم منه .

عشر دقائق طويلة كالأبد والثور العنيد أمام المصارع العنيد وكلاهما لا يرحم الآخر ،وكلاهما لا يمل أو يكل وكأنما يخجله أن يضعف فى حضرة خصمه . والساحة قطعاها من المحيط الى المحيط ولم يعد فيها مكان الا وشهد مأزقا أو خطرا أو حركة بائعة البراعة والبطولة .. ومنهما معا .

لم يعد يربط الناس فى الحقيقة الى مقاعدهم والى

المعركة اللانهائية الدائرة أمامهم الا تلك الخيوط الخفية ، آلافها المؤلفة التى تربط كلا منهم وكأنما بطريقة شخصية محضة بصاحبنا المصارع ، والتى بمضى الثوانى والدقائق كانت تقوى وتشتد حتى لقد ملوا المصارعة ولكنهم لم يملوا المصارع ولم تتخل عنهم لومضة متابعتهم له ، أو غادرهم لثانية قلقهم الهائل عليه وعلى مصيره ، حتى لقد انعكس ذلك الارتباط والاهتمام على نظرتهم للثور . قد يكرهونه أو يحقدون عليه فقد كان يحارب ببطولة هو الآخر وحذق ، ولكنهم أيضا لم يحبوه أو يشفقوا عليه . الحقيقة كانت عواطفهم تجاهه تنبت فجأة وتتغير فجأة وتختفى فجأة ! فاذا حاصر المصارع وبدا أنه سينقض ، ارتفع لديهم حقد مفاجىء عليه يبلغ الذروة ، وينخفض حالا الى الصفر حين ينجح صاحبنا المصارع فى التغلب على المأزق . وحين كانوا يرون الثور يبذل جهده المضنى القاتل ويلهث لهثة المؤرق وهو يكافح ليستدير وليعود يهاجم ، كانت تنبت له فى أنفسهم شفقة ولكنها الى حين . وأخيرا وكميل شمس يوم صيام طويل حار تشرخت له من الظمأ حلوق الصائمين ، كميل شمس يوم كهذا للمغيب ، بدا فى النهاية أن التعب قد نال من الثور تماما حتى أصبح يتوقف عن الحركة مرغما .

وكاد الناس يتنفسون الصعداء لولا أنهم أدركوا أن

www.dvd4arab.com

المصارع هو الآخر كان قد هده التعب هدا • بدا هذا واضحا من الجهد العظيم الذى كان يبذله لكى يولى الثور ظهره مبتعدا عنه ، حين يكف عن الهجوم ليتلقى تحية الجمهور •

وكأنما بمعاهدة غير مكتوبة كثرت النوبات التى يتوقف فيها الثور بلا حراك ، والتى يتركه فيها المصارع ويستدير محييا الجمهور فى بطء •

وكذلك مضى الثور يستغرق مددا أطول لكى يستعد ويعاود الهجوم فترات ونوبات أتاحت للغريمين العنيدين أن يختلسا بضع لحظات يلتقطان فيها أنفاسهما استعدادا للمرحلة الحاسمة المقبلة •

وهكذا دون أن يدوى نفير ، أو يدل شىء على الحدث الخطير التالى ، ترك المصارع الثور واقفا وسط الدائرة الرملية لا يتحرك ، واقترب من السور حيث استبدل بالقطعة المعدنية سيفا من الصلب اللامع ، وكذلك غير (الكابا) الحمراء بأخرى فى لون الدم القانى •

ودارت محاورات أخرى •• الخلاف الوحيد بينها وبين ما سبقها أن المصارع كان يستعمل السيف فى سند العباءة وفردها بدل القطعة المعدنية • المحاورات التى يأمل المصارع منها أن يصل الانهاك بالثور حد التوقف عن الحركة ، وأن يضمن توقفه هكذا لبعض

الوقت بحيث حين يبتعد عنه وينشن بالسيف على المكان المناسب للطعنة ثم يندفع تجاهه ، لا يتحرك الثور الا قليلا وبهذا يأخذ الطعنة الى النهاية ، الى مقبض السيف •

وانتهت المحاورات بتوقف الثور وقد هد جسده واستنفدت قواه الى آخر قطرة •

وحف بالزمن على قصره سكون مهيب تام •

وشملت « الأرينا » رهبة •• رهبة الموقف •• ورهبة الموت المقبل •

ان الموت دائما وفى كل زمان ومكان وبالنسبة لأى كائن حى لحظته أبدا لا تمر عادية •

ان الحياة كل أنواع الحياة تكاد تسكن تجاهها حدادا وخشوعا •

وهذه ليست ميتة عادية ، انها ميتة بطل ! وبطولة الكائنات تقربها كثيرا من جنس البشر ، دليل آخر على غرور الانسان كأنما البطولة من صفاته وحده ، وحتى لو كان البطل ثورا فقد بز بنى جنسه جميعا وقام بما لم يقم به ثور •

وليست رهبة الموت فقط ولا رهبة الموت للبطل •

ولكنها أيضا واهم رهبة الموت المدبر ، رهبة القتل •• حتى لو كان القتل تتويجا لصراع فهو لا يخلو من [illegible]

Looloo
www.dvd4arab.com

قتلا . ها هو المصارع يستعد له ويترصد . ويتراجع الى الخلف ويسبق عمله بالاصرار ، وينشن ..

رهبة الاغتيال ..

حين تؤخذ الضحية على غرة ، فصحيح أن الثور يرى المصارع ويرى ما يقوم به من استعدادات ولكن انهاكه يشله ويحول بينه وبين مهاجمته ، غير أنه لو قدر له أن يعى أن هذه التحركات نفسها ليست سوى مقدمات قتله ومصرعه لاندفع يهاجم خصمه ولو مات انهاكا ، ولما وقف أبدا مستسلما لتعبه أو كالمستسلم .

لحظة رهبة حقيقية — لا بطولة فيها ولا يتحمس فيها الجمهور لطرف أو لعمل ، اذ هو لحظتها يكون مشغولا بما هو أهم وأشمل وأخطر ، بغريمه اللدود وبغريم كل كائن حى .. بالموت الذى يتاح له أن يراه وأن يعرف أنه سيقع حالا ، وأن هذا الكائن الحى المنتصب أمامه سيرقد بعد ثوان ميتا .

يشغل الجمهور بالموت ، بل تتعدى مشغوليته الكبرى الى ما هو أخطر من الموت .. معرفة الموت قبل وقوعه .. والوقت الذى سيحدث فيه والكائن الذى سيموت . انها تجربة لا يحياها أى من الآلاف الثلاثين كل يوم ، تجربة تمسه شخصيا هذه المرة وتستدعى الى واعيته ألوانا وآلافا من الخواطر .

وذلك هو الصمت الذى كان مستتبا وشاملا ، كان صمتا من الخارج .

فهو من الداخل آلاف وملايين من الخواطر والهواتف والهواجس تتشابك وتتلوى وتصرخ كملايين الحيات الزاحفة ذات الأجراس داخل آلاف الجماجم والرءوس .

وتحدث الحركة بأسرع مما يبرق البرق أو يلمع النصل ويغيب .

اذ هكذا ما كدنا نلمح المصارع وقد انتهى من تدبر موقفه وحركته القادمة واتجاهه ، حتى رأيناه كاشارة ملوحة يندفع والثور يتحرك فى نفس الوقت ولا يرى للتماس أو الاحتكاك أثر ، وفقط حين ابتعد المصارع واندفع الثور يستديد لمحنا السيف وكأنما غرسته يد أخف من يد حاو .. ولكن الطعنة لم تكن قد وصلت بالسيف الا لمنتصفه .

وليس هذا هو المهم فممكن أن تكون هناك طعنة ثانية وثالثة .

المهم أن الثور ما كاد يتلقى الطعنة ويحس بالنصل المعدنى البارد قد اخترق صدره واقترب من صميم الحياة فيه ، حتى حدث ما لم يكن فى حسبان أحد ، كأنما ضغط السيف بطرفه على زر التفجير ، كأنما الطعنة فتحت أبواب مخازن طاقة كامنة هائلة لا تنفتح الا على

Looloo
www.dvd4arab.com

كلمة السر تلك ، كأنما الغدر الذى تمت به استدعى للوجود وحشية الوحش وأجداده وسلالاته أجمعين ، كأنما حدث بهذه الحركة التى بالكاد لحظها أحد شىء طاغ عات ، اذ جاء رد الفعل طاغيا عاتيا وحشيا أثار القشعريرة فى البدن • فهذا الثور الذى كان الاعياء قد شله وأتى على كل قواه انتفض منه كائن آخر كأنما لا يمت اليه بصلة ، كائن قل فيه ما شئت من صفات ، مجنون غاضب سفاح مجرم ! قل كل ما شئت فلن تستطيع وصفه أبدا ولن أستطيع ، اذ المفاجأة التى تم بها التغيير ، والسرعة التى تعاقبت بعدها الأحداث لم تدع لأحد وقتا يتأمله ويدقق فى صفاته ، ومن يدقق فى صفات البحر حين تندلع العاصفة ؟ ومن يتأمل النار ساعة شبوب الحريق ؟ •

انطلق الثور فى غضب أعمى يهاجم المصارع فى قسوة وبهدف واضح صريح كأنما كتب على جبينه أن يقتله •

وكان رد الفعل أن بدأ المصارع يجمع فى ثانية شتات قواه التى بعثرها صراع عنيد طويل ، ودفعته الرغبة فى الحياة وصرخة الدفاع عن النفس التى انطلقت على نية الثور الواضحة وكأنها نية كائن بشرى تظهر ملامحه ما ينتويه ، ومضى يدافع عن نفسه دفاعا كان فى الحقيقة

مرحلة أكثر يأسا من الدفاع عن النفس •• كان فقط تأجيلا للحظة الموت •

ومن خمود الشبعى المتخمين انتفضت آلاف الجماهير مستردة وعيها وانتباهها حاشدة قواها ، تكاد تقف على أطراف أصابعها قلقا وذهولا وخوفا •

وفى هجمته المنتفضة الثالثة أو الرابعة اندفع السيف من تلقاء نفسه طائرا فى الهواء ، وكأنما قذفه خارج الصدر بركان تفجر داخله •

وأصبح الثور أكثر انطلاقا •

واندفع فى اتجاه المصارع •

ولم يكن فى العملية كلها سواء من جانب الثور أو جانب المصارع تكتيك أو أصول أو حساب وقواعد • كان الثور يهاجم وحين يتفاداه الشاب يغير من اتجاهه ويستمر يهاجم ، ولم يكن يهاجم العباءة الحمراء وحدها ، أصبح يهاجم العباءة ان وجدها وجسد المصارع نفسه اذا كان أمامه • ومزقت قرناه العباءة أكثر من مرة ، وبالكاد كان يجد المصارع وقتا أو مكانا لاستبدالها •

وكان لابد أن يحدث ما حدث •

ففى هجمته اشتبكت قرون الثور بثياب المصارع • ودفع الثور رأسه الى أعلى ، ولكن هذه الحركة البسيطة أطارت الثاب النحيف فى الهواء وأسقطته على ظهره

Looloo
www.dvd4arab.com

أمتار . ولحظه الحسن جاءت سقطته قريبا من السور ، واندفع نافذا بجلده ليحتمى بالعارضة القريبة من الثور المقبل عليه ، والكلمة المكتوبة على جبينه تتوهج وكأنما تحولت حروفها الى نار . وحين خرج ستة مصارعين لتعطيله حتى يتمكن زميلهم من الوصول الى العارضة ، اندفع الثور يكتسحهم وبانقضاضة منه يدور عليهم مشتتا شملهم بحيث يطلق كل منهم ساقيه للريح يبحث عن عارضة تحميه .

وفعل هذا كله دون أن ينسى غريمه ، فقد أقبل على العارضة التى يختفى خلفها ولم يهمه أنها من الخشب فقد نطحها بقرنه أكثر من مرة ، وحين لم يجد فائدة وقف أمامها لا يتحرك متربصا لغريمه تربص قاتل صمم على الاجهاز .

أكدت الحادثة أن النية التى تحملها ملامحه وتتوهج نارية من عينيه نية حقيقية لن يتراجع الا بتحقيقها ، وأكدت هذا أول ما أكدته للمصارع نفسه ، وبهذه الانقضاضة التى لولا ضربة حظ عشواء لأتت عليه . وفى الحال انقلب خط الدفاع عن النفس الذى كان قد اتخذه الى غضب أحمق مجنون هو الآخر ، وانقلبت عنده نية قتل الثور من نية قتل طلبا للبطولة الى نية قتل غريم وعدو لدود ، ألد الأعداء ، قاتلك .

وهكذا لم ينتظر أن يغادر الثور مكانه ليدع له فرصة الخروج ، أشار الى زملائه آمرا بنفس لهجة الغضب أن يلوحوا للثور بعباءاتهم ليبعدوه عن مكان الخروج ، ولم يأبه الثور للتلويحات الأولى وكأنما هو قد حدد غريمه وطاعنه ولا يريد أن ينشغل للحظة واحدة عنه .

ولكن اصرار الزملاء وملاحقتهم دفعاه الى التخلى عن موقفه والجرى وراء العباءة .

وغادر صاحبنا مخبأه الاجبارى والغضب الهائل لا يزال يجتاحه ويمتقع له وجهه كما لم يمتقع بالخوف أو رهبة الدفاع عن النفس .

وكان الجمهور أيضا قد بدأ يغضب لغضبته ، ويقف معه وان كان بالقلب وحده ضد غريمه المجرم الذى عقد العزم على الفتك به .

وبدأ جو ثان غريب يسيطر على الساحة ، وخيم على الناس صمت كان له صوت لا أثر مادى له ، ولكنه أعلى من كل صوت .

ولا أدرى لماذا شعرنا جميعا ونحن فى مقاعدنا بتحفز مفاجىء .. لم تكن المحاورات والمناورات بين الثور والمصارع قد تغيرت ، انها هى نفسها التى كانت دائرة قبل عملية الطعن الفاشل ولكن وقعها كان مختلفا ، وكان الثور يؤدى دوره بشراسة أكثر .. وبدا فى رد المصارع

Looloo
www.dvd4arab.com

نوع من فقدان الأعصاب ، ذلك الذى ينتج حين تشد الأعصاب وتتوتر الى آخرها حتى يبدأ بعضها يتمزق وتبدأ طاقات الصبر تنفد واحدة وراء الأخرى .

وكذلك بدأ وجهه يصبح أكثر شحوبا وتصميما .

ومن الصعب المستحيل أن أصف اللحظات القليلة التى سبقت ماحدث ، فنحن لا يمكننا وصف مايسبق الحادث الا اذا كنا على معرفة سابقة بحدوثه أو على الأقل نتوقع حدوثه .. كل ما أستطيع قوله أن المحاورة ظلت دائرة ، وكلما طال استمرارها ظهر التخبط الأعمى فى حركات الثور والاضطراب الذى لا مبرر له فى تحركات الميتادور . قال البعض انه التعب ، لقد استنفدا كل قواهما والى آخر قطرة . قال آخرون ان الثور بسبب النزيف المستمر قد أصيب بالعمى وأنه لم يعد يرى فقد أصبح يهاجم بلا سبب ويتوقف بلا سبب ، وتطيش هجمته مرة ويرتد مرة أخرى فجأة وبلا توقع فيكاد يأتى على الميتادور .. ولكنه كان يفعل هذا كله بدافع بدا مختلفا تماما وكأنه الحقد .. الحقد الدفين المبيت .. الحقد الذى يشعل فى الكائنات العليا نار الحرب ويجعل الأخ يذبح أخاه .

وفجأة ، أجل فجأة ! هكذا تحل الأحداث دائما فجأة ، فجأة ! ولغير ما سبب معلوم أو مرئى انزلقت قدمه

وسقط ، لم يعرف أحد لماذا انزلقت قدمه أو السبب الحقيقى لسقوطه فقد وجدناه فجأة ممددا على الأرض .

كان الثور قريبا منه ورأسه فى اتجاهه أيضا ، ورغم أن سقطته المفاجئة أعقبتها فى الحال وقفة مفاجئة منا ، من الثلاثين ألف متفرج ، وقفة خوف الا أنه خوف يشوبه اطمئنان كثير فقد خدعتنا نجاته السابقة ، واعتقدنا جميعا وبلا استثناء واحد أنه لابد سيحدث كما حدث فى المرة الأولى ، وسيهب حالا من وقفته ويستأنف الصراع . ولكن الثور فى تلك اللحظات كان مقبلا عليه اقبالا أسرع من الزمن — هكذا بدا لنا — أسرع من خواطرنا ، أسرع من حساباتنا ، أسرع من أى شىء فى الوجود اذ كان له سرعة النكبة والكارثة والقضاء حين يحم .

ولكن سرعته تلك لا تنفى أبدا أنه لم يكن هناك وقت ، ليس وقتا كثيرا ، ولكنه ذلك الحد الأدنى من الوقت ، ذلك الذى تستطيع بالكاد أن تلمحه وتحس وجوده أو مروره ، وقت كان يكفى على الأقل ليعتدل الشاب ، ولو أوتى نفس قدرته الأولى لكان قد استطاع أن يقف ويتفادى من الثور القادم .

ولكنه لم يقف ولم يعتدل ولا حتى رفع ذراعا أو حرك ساقا . رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتا الا أنها أثارت

www.dvd4arab.com

استنكارا ، فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المنقض ، أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المنقض ، وكأنما بفعل صاعقة وجدانية شاملة مكتسحة • فى ذلك الجزىء من الوقت أحسست لفرط تآزرى معه فى معركته ، لفرط تبنىّ لموقفه ، لقوة الخيط الذى يصل بينى وبينه والذى كاد يسحب منى الروح لتحل بجسده ، أحسست وكأنما الشلل الذى انتابه قد شلنى أنا الآخر وأصابنى •• شلل لا تفسير له ولا تبرير ، شلل ساعة حدوثه لا تستطيع أبدا تبينه أو ادراكه ، لا تحس به الا هناك حينما تجلس مثلى على مكتب تستعيد ما حدث وأمامك الوقت متسعا للتأمل والتحليل والتبرير • لطالما سمعت عن تلك اللحظة وقالها الناس أمامى وسخرت من قولهم ، تلك التى يقولون عنها أن « سهم الله » قد نفذ فيهم فأوقف التفكير وشل الجسد وأعمى الروح • تلك التى تحدث لنا حين نواجه بغتة خطرا لا قبل لنا به ، أو قوة غاشمة عاتية لا يمكننا أبدا مقاومتها • انها آخر مراحل وقوفنا أمام تلك القوة • اننا أساسا كبشر لا نعترف بوجود قوة غاشمة لا قبل لنا بها ، كما يعتبر الانسان أساسا أن لا وجود لشىء فى الكون لا قبل له به • وحين نرى تلك القوة أو نلمحها وبيننا وبينها مسافة •• مسافة مترية أو زمنية أو نسبية ،

مسافة « أمن » نسبى ، فأول شىء نفكر فيه أن نقاوم تلك القوة ونعاديها ونحاربها ، هكذا تلقائيا وغريزيا وبصفتنا كائنات حية ، حتى لو اضطررنا للهرب منها ففى الهرب معاداة وكره ، تماما مثلما ما فى المواجهة من معاداة وكره • ونظل فى حرب معها ، فى احساس شامل بمقاومتها والرغبة فى تحطيمها وتشتيتها حتى تنجح تلك القوة فى الاقتراب منا وتهديدنا وتخرق بهذا خط أمننا النسبى • حين يحدث هذا ونروع نحن باندحار هذا الخط وبأن هذه القوة الغاشمة قد اقتربت منا ومن تهديدنا الى درجة أصبحنا معها تحت رحمتها ، وبأن لم يعد هناك مفر ولا مهرب ، وحينئذ يبدو وكأنما قانون كقوانين الجاذبية يطبق •• فكما يجذب الجسم الكبير الأجسام الأصغر منه يحدث أن تتحكم القوة الغاشمة الأكبر فى قوتنا الانسانية المحدودة وتفرض عليها نفسها فلا تعود أجسامنا تتلقى أوامرها من عقولنا ووعينا ولكنها تخضع خضوعا أوتوماتيكيا مباشرا لهذه القوة الغاشمة الكبرى ، وبدلا من أن تحدث المقاومة بفعل العقل والوعى وغريزة الدفاع عن النفس يحدث الشلل •• الشلل الكامل الشامل بفعل هذه القوة الأكيد مباشرة وبأمرها ، تلك اللحظة التى نسميها مرة أن سهم الله قد نفذ فيها أو أن القضاء قد حم والأجل قد انتهى

Looloo
www.dvd4arab.com

أو التى لنا أن نسميها لحظة انهيار خط الأمن النسبى وتحكم القوة الغاشمة فينا .

والحدث كما وقع أمامنا تم ببساطة وكأنه دورة أخرى من دورات « الميوليتا » . سقطة ، وارتفعت على أثرها وقفة وشهقة جماعية مرعبة ، شهقة كالصرخة .. كالطلقة ، وكأنها العون السريع تقدمه يد الضعفاء الكثيرين غير المنظورة التى تمتد لتمنع عن الضعيف الواحد الذى انهار خط أمنه الأذى الغاشم الذى لا قبل له به . ثلاثون ألف يد غير منظورة امتدت لتساعده ، ولكن كيف تستطيع أيد غير منظورة حتى لو كانت تعد بالملايين وملايين الملايين أن تمنع القدر الغاشم أن يقوم بعمله ، فعلى أثر الشهقة تماما ، اذ الحدث لم يأخذ سوى الوقت الذى استغرقته الشهقة ، كان الثور قد وصل اليه ، وبغل أسود مجنون ، وباندفاعه الأهوج الأعظم ، نفذت قرونه من خلال صدر الشاب المزركش الى رمال الأرض . وكانت الطعنة الأولى التى تبيناها ، اذ على أثرها تداخلت الأحداث والأشياء والأزمان ، تأوه أناس وكأنما هم الذين أصيبوا بالطعنة ، وأشاحت سيدات بوجوههن وشاركن الرجال ، وسقطت قلوب ودقت أرجل وأغمى على كبار . والخوف الأكبر ، الخوف الذى كان يرهبه الجميع منذ أول لحظة ، ذلك العقاب

القابع فى مكان خفى من الأربنا ، ثمة احساس جامع شامل أنه أخيرا وقع ، أخيرا انقض وبمخالبه العزرائيلية يضرب ويطعن ويقتل أعز مخلوق . ألف ألف انفعال يجمعها كلها شعور عارم جارف واحد أنه ضاع وانتهى ، كأنما القوة الغاشمة قد اخترقت خطوط أمنهم هم الآخرين أجمعين ، ولم يعودوا يملكون سوى شلل الحسرة وانفعالات الجامدين . وكيف كان باستطاعة أى منهم — باستطاعتى أنا — أن يشيح بوجهه أو يهرب من مواجهة المصير ؟ ومن أين كانت تواتينى الشجاعة أن أغمض عينى عما يحدث ؟ انها المأساة ، مأساتى فى صاحبى ، صاحب اللحظة الذى بدا لى فجأة وكأنه صاحب العمر . من أول دقيقة والهاتف اللعين فى خاطرى يؤكد لى أنه فى هذه المرة لن يفلت ، وأناضله بجنون فى انتظار معجزة المعجزات ولكنى بدلا منها أرى الطعنات ، أرى رأس الثور يرتفع كمقبض الخنجر ثم يهوى ليغيب نصلا القرنين فيما كنت أعتقد أنه الأرض أحيانا ، وفى ملابسه أحيانا أخرى ، ليثبت لى بعد هذا بكثير أنها كلها كانت فى جسده ، فى صدره وبطنه وجذر عنقه وتحت ابطه .

وماذا أقول ؟ أأقول ان كل هذا لم يستغرق زمنا ما وكأنه عاصفة هول هبت فجأة ودارت دورة سريعة ثم

Looloo
www.dvd4arab.com

أختفت ، دورة أسرع من أن يلحقها الميتادورات السبعة بعباءاتهم والقدر بمعجزة معجزاته ؟ بل أسرع حتى من أن أتبين ، مع أنى كنت قد تحولت بكلى الى عينين جاحظتين ، على وجه التقريب كنه ما حدث ؟ كان فى رأسى من أول ومضة للأزمة طبل حزين كبير مجلل بالسواد مضى يدق فى سرعة تشجب قدسية الحزن .. انه الثور هذه المرة .. القوة الغاشمة الجاهلة الحمقاء هى التى تفتك ، والضحية هى الكائن الانسان الراقى الشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذى لا يرحم . كم بدا لى البطل ضعيفا فى تلك اللحظة ، طفلا ، ضنى عزيزا .. كم غلت فى عروقى دماء أعمق وأقوى القرابات ، قرابة الانسان البشرى للانسان البشرى تلك التى تدفعنا بلا وعى أو ارادة لنجدة المأزوم اذا استغاث وحتى اذا لم يستغث .. لم يكن ما كنت أحسه من هلع ليختلف كثيرا لو أن المطعون كان ابنى أو أخى أو أبى ، فقد كنت فى أقصى درجات الهلع وأقصى درجات الغضب وبآخر ما أستطيعه من حزن كنت أضيق ، وبأقوى ما أستطيعه من هلع كنت أحقد على عدو الميتادور وعدوى وعدو كل من فى الساحة وعدو البشر .. القوة القاهرة العمياء الغاشمة — أية قوة عمياء غاشمة — وليس عليها هى بالذات ولكن عليها حين نراها

أقوى بكثير منا وأقدر ، حين نراها فى انتصار عارم ملموس ونحن فى هزيمة ساحقة باردة واقعة .

وأبعدوا الثور عنه ، الى أين ؟ لم ير أحد . كانت العيون كلها هناك منصبة فوق رقدته التى لم تطل ، فما لبث أن أقبل زميلان له ودون أن يرفعاه وقف ، ومعه وقفت أرواحنا وأنفاسنا ودقات القلوب .. أيكون ما رأيناه خداع بصر ؟ ها هو ذا أمامنا وبعد كل تلك الطعنات يقف دون مساعدة من أحد .. لابد أنها لم تصبه .. لابد أنها جاءت عشواء وحادت عن الهدف ، ولكنها آمال أيضا لم تطل .. فقد حدث شىء .. اذ وكأنما كان قد استنفد كل ما لديه من حلاوة الروح ، انثنى فجأة برقبته وهو واقف على صدره ، ووضع يده على ثديه الأيمن ، وقبل أن يتهاوى كان زميلاه قد رفعاه فيما بينهما وبسرعة مضيا يعبران به الساحة تحت خيمة سكون مذهل مرعب .

وحين اقترب الموكب منا لمحت بقعة الدم فى نفس المكان الذى وضع فيه يده على صدره ، وجف ريقى وأحسست أن قلبى قد انتقل الى رأسى ومضى ينبض فى حيزها المحدود بقوة تسحق العقل .

وأدخلوه من باب يفتح على الساحة ومكتوب عليه « المستشفى » ، ولم يمنعنى ما كنت فيه من أن أدرك

www.dvd4arab.com

انى لم ألحظ وجود هذا الباب ووجود المستشفى نفسه قبلا .

ورغم ما كنت فيه أيضا وجدتنى ألتفت فجأة الى يسارى حيث الفتاة الكوبية ، وأكثر ما أدهشنى أنى وجدتها لا تزال فى مكانها . كنت أتوقع أن أجدها قد قفزت الحاجز وسبقته الى باب المستشفى ، ولكنها كانت هناك لا تزال منكفئة على حديد « الدرابزين » مخفية وجهها ممسكة الحديد بقوة أذهبت الدماء من يديها حتى بدتا شاحبتين كأيدى الموتى .

ولم يدم السكون طويلا فما لبثت الهمسات الملحة أن بدأت تسرى وتتساءل عن مصـــيره وعن مدى ونوع جروحه بلا اجابات تشفى غليلا ، اذ باب المستشفى كان قد أغلق عليه وحده ومعه الممرض والطبيب ولم يسمح لأحد بالدخول أو حتى مجرد الاستفسار .

ومرت بضع لحظات لازلت لا أدرى ماذا كان يدور بخاطرى فيها ، كل ما أستطيع أن أؤكده أنى كنت تائها مذهولا .. ذلك النوع العميق المســـتمر من الذهول ، مفجوعا .. وكأنى المفجوع الوحيد ، أو كأن فجيعتى أكبر من فجيعة الآلاف الثلاثين مجتمعة .

لماذا ؟ لم أكن أعرف أو أدرى ! كان اشفاقى على نفسى من ثقل ما أحمله من هم يدفعنى لمحاولة التخفيف

عنها بقولى انه لم يصب الا بجروح ومن المحتمل جدا أن يشفى ، ثم حتى لو كان قد مات فماذا يحملك على هذه الجنازة الحالكة السواد التى أقمتها داخلك والتى تهدد بقبض روحك ؟ .

ولم تكن أقوال كهذه تدفع الا لمزيد من الفجيعة والحزن .

غير أنه على سطح كل هذا كان يطفو احساس آخر بالانبهار . الحقيقة أنى رغم كل ما قلت وأعدت كانت جدية المصارعة وما فيها من بطولة لا تزال عندى موضع شك ، وان كان بمضى الوقت كان يضعف الا أنه أبدا لم ينعدم . لم ينعدم الا فى تلك اللحظة التى أدخلوه فيها المستشفى مشبعا بالطعنات ودوائر الدم الناضحة من ملابسه الأنيقة تتسع وتتسع ، ذلك الفتى الشـــهم الرقيق الذى كان يلف ويدور فى الأرينا ممتلئا بالحياة والقوة والصحة . لحظتها أدركت أن رسمه ، ورسمهم جميعا لعلامة الصليب قبل دخولهم الساحة أبدا ليس من قبيل التدين أو الفأل الحسن . لحظتها أدركت سر الصفرة المتعاظمة التى كانت تكسو وجهه ووجوههم جميعا طول الوقت . انهم كانوا أدرى الناس بما يختفى وراء كل تلك « الأوليهات » وانتهليلات والحشود من الســـياح والأسبان والملابس المزركشة والتقاليد العتيـــدة ..

Looloo
www.dvd4arab.com

اذ هناك يختفى الموت وعلى أبشع صـــورة .. الموت بالارادة ، الموت بالحظ ، الموت لأقل هفوة ، الموت حتى ولو لم ترتكب هفوة .

وانبهارى كان سببه أنى أدركت متأخرا ومفجوعا مخنوق الأنفاس بالحزن أنهم أبطال ، وان صديقى هذا الذى اخترته من أول لحظة بطل . ليست البطولة التى تستدعى التصفيق والتهليل ولكنها البطولة التى تدفع للبكاء والدموع واحتقار النفس لما يمكن أن يكون مترسبا فيها من خوف الموت . ها هم كما رأيناهم ، ها هو كما رأيناه ، كان يدرى بالخطر الأكبر الكامن ليس فى هذا اليوم بالذات ، ولكن فى كل يوم ، فى كل مرة يطأ رمل الدائرة بقدمه ، فى كل حياته ، ومع هذا لا يتراجع ، ويقدم ، ويلف ويدور ويواجهه حتى يسقط ، ســقطة حقيقية ، سقطة فى بحر من دمه .

كانت المصارعة والغربة واليوم والدنيا كلها قد انتهت تماما بالنسبة الىّ . كل حماسى ورغبتى وقدرتى حتى أن افتح العين وأنظر وأعقل قد انتهت . كنت أحيا بجماع نفسى هناك على باب المستشفى داخل تلك الحجرة ذات الباب المنخفض التى نقلوه اليها . هل لا زال يتنفس ؟ هل بدأ النزيف الداخلى ؟ هل مات ؟ .

وكذلك كان الجميع انصافا للحق ، كنا جميعا هكذا

وكان الخيـــوط التى كانت تربطنـــا به قد قويت فجـأة وتماسكت حتى جذبت منا كل الوعى والانتباه ، والصمت أيضا كان لا يزال هناك ، والهمسات تخرج خافتة وتحدث خافتة .

ولكنى لم أتوقع ما حدث .

وازداد ذهولى عمقا وأنا ألمح الأنظار قد بدأت تتجه شيئا فشيئا الى الثور الذى كان هناك لا يزال واقفا ، عليه ينصب حقد ستين ألف عين .

والسؤال المسيطر هو ماذا يمكن أن يحدث .

وما حدث هو نفس ما يحدث فى كل مرة ، فليست تلك أول مرة يسقط فيها ميتادور وبالتأكيد لن تكون الأخيرة .

كان لابد أن تستمر المصارعة .

واعتقدت تماما أنها ستستمر بلا جمهور ، فالجمهور كان منصرفا عن الساحة واهتمامه كله قد تركز على الباب المنخفض المغلق ، وبقلبه اذ هو لا يستطيع ببصره كان يتابع لاهث الأنفاس ذلك الصراع الآخر الذى لابد يدور فى تلك الدقائق داخل الحجرة ، لا بين المصارع والثور ولكن بينه وبين ما هو أقوى وأبشع وأكثر وحشية من كل ثيران الدنيا مجتمعة .

Looloo
www.dvd4arab.com

— ١٤ —

فى تلك اللحظات ، وبخطوات لا حماس فيها ، وبرعب •• تقدم مصارع آخر ، ذلك الذى فشل فى قتل ثوره الأول الذى كانوا يسمونه البرتغالى ، تقدم من الثور ومعه العباءة والسيف وقبل أن يتوسط الساحة كان الأخير قد انطلق نحوه مهاجما •

ومع أنى ظلت مشدودا بكلى الى الصراع الأكبر داخل حجرة المستشفى ، الا أنه رغما عنى وبحكم وجودى وسط تلك الكتلة الحية الضخمة التى تكون جماهير الأرينا وجدت نفسى أتابع باهمال شديد وبلا حماس ، لا ما يدور فى الدائرة الرملية ولكن ما يحدث للجماهير • اذ كان ما يحدث شيئا لم أستطع تصديقه ولا استطاع عقلى الى الآن هضمه واستيعابه ، بالتأكيد هم لم يولوا المحاورة الدائرة فى الساحة أول الأمر اهتماما يذكر ، ولكن بعد دقائق قليلة كان قد بدأ اهتمام ، وبعد دقائق أقل كان الاهتمام قد استحوز على عقولهم تماما ، ولم تكد تمضى خمس دقائق حتى تصاعدت

أول « أولية » • كدت أقف صارخا محتجا لاعنا هذا الجمهور الجاحد مطالبا اياه بالعودة لتركيز ارادته وهلعه وانتباهه مرة أخرى الى الشاب الراقد فى الداخل يصارع الموت من أجلهم ، ولكن حتى لو كنت قد وقفت وصرخت ومزقت نفسى لما كان لما أفعله أثر ، لكأنى كنت أريد أن أقف بجسدى لأمنع ماء البحر من التدفق ، أو لأوقف موجه العاتى لأرغمه أن يهدأ حدادا على سفينتى الغارقة • ان السكون حدادا معناه الموت ، والحياة والبحر والموج لابد أن تستمر ، ولهذا كان لابد أيضا أن تستمر المصارعة وتستمر الصيحات تتعالى ، ويستمر الصراع يمتص انتباههم ، فقد كانوا هم الآخرين لا يزالون أحياء • صحيح كان الحقد الهائل لا يزال ينصب على الثور ، وصحيح كان جزء كبير من المتابعة هدفه أن يشهد كل منهم فى النهاية بعينيه مصرع ذلك الذى صرع بطله وحبيبه ، ولكن هذا لم يمنع أنه فى سبيل تلك المتابعة نسى تماما بطله وحبيبه •

ومع أنى كنت أتابع فقط بحكم الوجود والعدوى وبلا ارادة ، الا أن ما استرعى انتباهى حقيقة هو الرعب العظيم الذى كان مسيطرا على « البرتغالى » ، والحقد العظيم أيضا • كانت عملية أخذ بالثأر أكثر منها مصارعة ، كان ثمة دم قد سال ولم تعد المسألة رياضة أو اثارة •

Looloo
www.dvd4arab.com

هكذا فى النهاية انكشفت اللعبة على حقيقتها العارية المجردة ، وأصبحت عملية قتل ، اما قاتل أو مقتول ، هكذا بلا مواربة أو اخفاء للنوايا أو استعراض .

ومات الثور فى النهاية . مات دون طعنة واحدة أصابته من البرتغالى . فجأة توقف عن جريه هنيهة ما لبث بعدها أن سقط كتلة واحدة على جانبه رافعا ساقيه فى الهواء لافظا أنفاسه لابد بتأثير الطعنة التى كالها له الميتادور الأول ، والتى كانت السبب فى هياجه ومصرعه .

وبقلب مفعم بالمرارة والدهشة رحت أتابع عودة الاهتمام بالبطل الصريع فى فترة الاستراحة ، والمحاولات الكثيرة التى بذلت لمعرفة مدى اصابته . وتلفت ، كانت الفتاة قد اختفت ولم أستطع أن أقطع ان كانت قد مرت أمامى فى طريقها للخروج ، ولكنى أحسست لاختفائها بنوع من عرفان الجميل ، فعلى الأقل فى وسط هذا الجمهور المتوحش الحاشد ها أنذا أعثر على انسانة .

ولم تسفر محاولات الاستفسار عن جديد ، كان جميع الواقفين أمام الباب المنخفض يكتفون بهز الرءوس وزم الأفواه فى صمت مبيت حزين .

وحين بدأ الدور الثانى وانتهت الاستراحة ، خيل

الى من الأصوات الكثيرة التى بدأت تتصاعد من الأرينا والزعيق والتحفز الذى قوبل به دخول الثور أن الحادث قد خفت حدته كثيرا وأن بعضهم لابد قد نسيه وآخرين لابد قد أرغموا أنفسهم على نسيانه ، ربما لكيلا تفسد ذكراه تمتعهم الكثير المقبل .. غير أنى كنت على يقين أنهم انما يفعلون هذا بقشرة وعيهم الممتدة فوق السطح ، أما من الداخل فهم أبدا لم ينسوا ولن ينسوا .

وابتدأ الشوط وانتهى ، وكذلك بدأ الثالث ، وفى لحظة خيل الىّ أن أحدا من الجمهور لم يعد يذكر الشاب الصريع فمن أعماقهم كانوا يتابعون الأشواط ، وبكل ذرة من كيانهم اصبحوا يلوحون ويهتفون ، وكذلك قل الى درجة الانعدام الكامل عدد الواقفين أمام الباب المنخفض .

وبمصرع الثور الثالث وبلا أحداث أخرى انتهت الفييستا ، وبدأ الناس .. أقلية قليلة تتسابق للخروج ، والأغلبية تتلكأ وقد عاد الحديث عن الميتادور الصريع ، وكله بالطبع أسف وحسرة وتذكر لمواقفه وشجاعاته .

وعند الباب العاشر ، أقرب باب الى حجرة المستشفى ، تجمع جمهور حوالى الخمسمائة أو أكثر قليلا يهدفون أن يروا الميتادور حين تقبل عربة الموتى وتنقله ، فالى تلك اللحظة لم يكن الباب قد فتح ولا سرب عنه خبر .

Looloo
www.dvd4arab.com

وأخيرا فيما يشبه الموجة انتشر بين الواقفين خبر ، اذ كان الباب قد فتح وأطل منه رأس • الخبر كان أنه لا يزال حيا وان كان يعانى من صدمة شديدة ، وان كان قد أصيب بسبعة جروح وكسر وتهتك • وما كاد الخبر ينتشر حتى كان قد انصرف لسماعه نصف الواقفين ، وبدأ الازدحام يخف ولم يصبح ثمة واجب كثير أمام عساكر البوليس الأسبانى الخيالة الذين كانوا يتولون المحافظة على النظام •

وما كادت ربع ساعة أخرى تنقضى حتى كان قد انصرف أغلب الواقفين ، ولم يعد سوى بعض المتسكعين وبعض من لا عمل وراءهم أهم من مشاهدة خروجه •

وهنا وفى تلك اللحظة فقط لمحت الفتاة الكوبية واقفة بجوار أحد العمدان وبصرها مسدد الى الباب ، وهى دائبة النظر الى ساعتها •

ودون أن أفكر كثيرا ذهبت الى حيث تقف • وبلهفة قابلتنى أنا الذى خفت أن تشيح بوجهها عنى وسألتنى وذكرت لها ما سمعت ، ولم يزد ما ذكرته أو يقلل من لهفتها وتطلعها واضطرابها •

وفى الدقيقة التى مضت على وقوفى معها رأيتها تتطلع مرتين الى الساعة •

وحتى قبل أن أسألها أجابتنى انها للحظ السيىء لابد

أن تسافر الليلة الى لشبونة وأن طائرتها ستغادر المطار فى الثامنة ، وانهـا لابد أن تذهب قبل هذا لفندقهـا والساعة كانت السابعة الا ربعا • كانت حالتها تدعو للرثاء حقا ، تمد رأسها الى آخر ما تستطيع ناحية البـاب العاشر ثم ترتد الى باب المستشفى ومنه الى الساعة ثم الى السيجارة تمتص دخانها بقوة وكمد وشراهة •

واندفعت مرة مسرعة الى باب الخروج ، ولكنها بعد بضع خطوات توقفت وعادت الى حيث كانت واستجمعت يدها ودقت العمود بقبضتها دقة رن لها خاتمها رنينا مكتوما وسقط فصه • وبضيق أشد تناولته وقذفته بقوة داخل حقيبة يدها •

وتمنيت أن تبكى ولكنها لم تفعل ، وحينئذ قلت لها لماذا لا تذهب وتلحق بطائرتها ؟ وهنا وفى ضوء الشمس المتبقية من العصر لمحت عينيها تحمـران — فقط كان احمرارا — واختنق صوتها و هى تقول :

— من تظننى ؟

وآثرت أن أسكت •

وظهرت عربة الاسعاف عند الباب ، وجـذبت من صدرها نفسا عميقا وألقت بسيجارتها • وعلى أطراف أصابعها شبت لتستطيع أن ترى عبر الرءوس الكثيرة التى تجمعت لا تدرى من أين ، وقفت لتشهد عملية نقله الى العربة •

Looloo
www.dvd4arab.com

غير أنه لا هى ولا أحد من أصحاب الرءوس وصاحباتها أتيح له أن يشهد شيئا ، فقد فتح باب حجرة المستشفى ودخلت العربة الى منتصفها ، وظلت عشر دقائق على وضعها ذاك ثم مضت مغبشة الزجاج لا يرى خلاله أحد شيئا .

ولا أعرف ان كانت الغمغمة التى وصلتنى وهى تندفع خارجة فى أعقاب العربة كلمة وداع .

ولكنها فى لمح البصر قد اختفت .

وبخطوات مثقلة وكأنما بحديد مضيت الى الخارج . وكنت أحسب المصارعين أناسا يحيون بين العربات الفاخرة والسهرات والفيللات ، فقد فجعت حقيقة وأنا أرى بعد عربة الاسعاف بدقائق سيارتين من سيارات التاكسى قد وقفتا أمام الباب وشحن فيها المصارعون وصبيانهم كل ستة فى عربة .. واعتقدت أنهم ذاهبون لابد الى المستشفى ، وخطر لى أن أستقل عربة وأتبعهم لأعرف أى مستشفى هو ، لكن الفكرة بدت لى فى لحظتها شاذة وغير معقولة .

وأنا فى الطريق من الحلبة الى الشارع الرئيسى المؤدى الى وسط المدينة وجدتنى وجها لوجه أمام عوض .. كنت قد تركته فى المغرب وها هى الصدف المحضة تجمعنا فى مدريد .

ولو كنت قد قابلته فى فرصة أخرى لفرحت للقائه كما لم أفرح فى سفرتى كلها ، فليس أحب الى قلب الانسان من أن يصادف صديقا فى غربة فما بالك اذا كان الصديق عوض أخف أهل الأرض دما وأكثرهم مرحا وتفتحا للحياة واستمتاعا بها . اذا غصت معه الى الأعماق غاص معك وان شئت أن تعبث وتطفو الى السطح سبقك .

سألنى عما بى وقد رآنى واجما ، ولكنى لم أستطع اجابته فالحقيقة لم أكن أعرف .

وابتلعتنا مدريد الهائلة بشوارعها وانانسها وسياحها وأمسيتها تلك وليلتها . ولم أستطع أبدا أن أنسى ، بل كان يحز فى نفسى أن كل هؤلاء الناس لا يذكرون أن عوض مرح وأنه يعتبر مصارعة الثيران عملا وحشيا لا يليق بعالم اليوم عالم القرن الحادى والعشرين .

وافترقنا فى الثانية صباحا على موعد أن ألقاه فى الصباح .

وحين أصبحت وحدى فى الحجرة الضيقة التى عثرت عليها فى ازدحام فنادق مدريد بمثل ما تعثر على الابرة فى كومة القش ، حجرة مليئة بصور القديسين ، وهناك صورة كبيرة نوعا للعذراء أسفلها مصباح كهربائى ، ولكن بلاتينه الداخلى يضىء نور أحمر خافت

Looloo
www.dvd4arab.com

على هيئة صليب ، جعل حركة رسم الصليب قبل الدخول الى الساحة تعود تدق على ذاكرتى وتدق .. حين احتوتنى الحجرة شعرت برغبة فى البكاء ، رغبة لا علاقة لها البتة بحادث اليوم ، ولكنها مجرد شجن خاص وضيق . ولكننى استسخفت الرغبة ، بل استسخفت المسألة كلها . ما هذا الجنون ؟ ولماذا أحمل وحدى تلك الجنازة السوداء الخانقة فى صدرى ؟ وهل أنا مسئول عن أرواح الناس وما يحدث لهم ؟ وماذا كان باستطاعتى أن أفعل ولم أفعله لأوقف الكارثة ؟

ان ما حدث قد حدث ، واذا كان الناس قد نسوه وتفرقوا بعد الاحتفال الى لهوهم وحياتهم بينما مضت به وحده عربة الاسعاف بين الموت والحياة الى المستشفى فتلك هى لابد سنة الناس هنا ، بل هى سنة الحياة ! فليس مفروضا أن تتوقف لأن أحدهم مات أو أصيب ولو كان الميت بطلا .

خواطر وردود على الخواطر كنت أقولها لنفسى محاولا أن أبعد شبح ما حدث عن تفكيرى ، محاولا أن أبعد هذا الانسان النحيف الرقيق عن وعيى بلا جدوى ، كانت الصور تعود وتصر على العودة كنتف متفرقة من فيلم طازج لا تزال عالقة به أملاح التحميض .. ونمت .

وفى الصباح صحوت ، وكان أول ما فعلته بعد

تناول الشاى فى المقهى القريب انى اشتريت الجرائد ورحت أقلب صفحات أولاها الى أن وصلت الى ما خيل الى أنه صفحة الرياضة ، وأنا لا أعرف الأسبانية ولكنى من جذورها المشتركة مع الانجليزية والفرنسية استطعت التعرف على الخبر ، كان فى ركن من الصفحة بعنوان على ثلاثة أعمدة ولم أجد فيه ذكرا لكلمة الموت .

وفى جريدة ثانية كان الخبر منشورا على عمود فى الصفحة الأولى ومعه صورة ، ومرة أخرى عاودتنى خيبة الأمل . كنت أتوقع أن أصحو فأجد الخبر قد عم المدينة ولا حديث للناس والجرائد الا عنه ، وها هم أناس يزدحم بهم المقهى يتناولون افطارهم فى صمت جاهل وقور .

Looloo
www.dvd4arab.com

« الفصـــل الأخير »

غادرت المكان تاركا الجرائد ما عدا احداها ، تلك التى ذكرت عنوان المستشفى الذى يرقد فيه ، ومضيت أسير فى الشوارع بلا هدف وقد قررت أن أخلف موعدى مع عوض .

كانت الشوارع مزدحمة بأناس كثيرين أيضـــا .. آلاف الناس الصغار الكثيرين ماضين مكهربين مكربجين الى أعمالهم دون كلمة واحدة عما حـــدث بالأمس وعن الميتادور الصريع .

وفجأة قررت أن أذهب الى المستشفى ، ورمقنى سائق التاكسى بنظرة مستطلعة وأنا أشير اليه دون أن أنطق الى العنوان المكتوب فى الجريدة وقد وضعت تحته خطا .. وفى الطريق قال كلاما كثيرا بالأسبانية ممزوجا ببعض كلمات انجليزية ــ لابد علمه اياها التعامل مع الأمريكان ــ كلاما فهمت منه أنه يعلق على ما حدث للميتادور ويريد رأيى .. واكتفيت بهز رأسى ، وحين يئس غمغم ببضع كلمات خمنت انها لابد سبابا .

وزعمت لبواب المستشفى أنى طبيب مصرى وانى أريد مقابلة أستاذ الجراحة ، وفى قسم الجراحة سألت الراهبة بالاشارة عن المكان الذى يرقد فيه الميتادور ، وأشارت الى ممر جانبى كانت تقف فى نهايته مجموعة قليلة من الرجال بينهم سيدة عجوز وصبى لا يتعدى العاشرة ، وحولهم وقريبا منهم كانت تتناثر بضع باقات .. واقتربت . كانت رءوسهم مخفضة ولكن اقترابى دفع بعضها الى الارتفاع .

كانت الحجرة مغلقة وعلى أكرتها لافتة معلقة لابد كانت أمرا بمنع الزيارة .

ووقفت قريبا من المجموعة ذات العيون المستطلعة صامتا مثلهم ، منكس الرأس خجلا ، ففى لحظتها كنت قد أفقت على سؤال : ماذا أتى بى الى هذا المكان ، ومن أنا بالنسبة للجريح الراقد فى الداخل ؟ أو حتى بالنسبة الى هؤلاء الناس ؟

وفتح باب الحجرة وخرج طبيب سرت بجواره بضع خطوات وحييته ، وأسعدنى أنه يعرف الانجليزية ، وزعمت له هذه المرة انى صحفى عربى وانى أريد أن أبرق بالخبر الى جريدتى ، وسألته عن حالة المصارع فقال :

Looloo
www.dvd4arab.com

— Grave.
— Internal hoemorrhage ?
— Two, one in the chest and another in the abdomen.
— External ones too.
— Prognosis nil then.
— Scientifically yes ... unless.
— Unless what ?
— Something happens, you know, a miracle for example !

وتوقفت عن السير ، وتابع الطبيب طريقه .

وتحرك واحد من المجموعة الواقفة كان أكبرهم سنا ولكنه أكثرهم صحة ، حيانى بالأسبانية ، وهززت رأسى ، وبمزيج من الانجليزية والفرنسية والايطالية قدم الى نفسه . كان المحرر الرياضى لجريدة لم أهتم بمعرفة اسمها ، وكانت رائحة البراندى الأسبانى تفوح منه ، وسألنى عما قاله الطبيب وأخبرته بالحقيقة . انه يعانى من نزيف داخلى وخارجى فى الصدر والبطن معا ، وأنه علميا لا يمكن أن يعيش ، ولم تبق على حد تعبير الطبيب — سوى المعجزة .

قال بازدراء غريب :

— ومن أين تأتى المعجزة ؟

قلت :

— من السماء .

ورفع بصره الى السقف وثبته هناك بعض الوقت ، ثم عاد يواجهنى وقال :

— قبل أن أعمل محررا كنت مصارع ثيران ، وتحدثوا فى العلم والمعجزات كما يحلو لكم ولكنه لحظة أن سقط أمامى فى الساحة وشلته السقطة عن أن يحرك يدا أو ساقا أمام الثور المقبل عرفت أنه انتهى ومات .

وكانت باقات أخرى من الزهور قد بدأت تفد فاستطرد :

— زهور وزهور وزهور .. كفنوه بالزهور .. دعوا الزهور تصنع المعجزة التى ينتظرها الأطباء .. من أى بلد أنت يا سنيور ؟ . أنا لا يهمنى من أى بلد أنت ولكنى أريدك أن تكون شاهدا على المأساة .. أنا لا أستطيع أن أكتب هذا فى جريدتى والا فصلت ، وأنا فى حاجة الى العمل لآكل وأنا قد جربت الجوع . أنا نشأت فى ملجأ أيتام الفرنسيسكان وأعرف ما هو الجوع . أنا مصارع قديم .. بطل ! أسبانيا كلها والمكسيك والبرتغال كانت تهتف جميعها لى ، ولكننى أخيرا اكتشفت المهزلة ، كذب كذب كذب كل ما تقرؤه عن التقاليد الأسبانية فى الفروسية وشجاعتهم التى خلقت مصارعة الثيران ... ليس

www.dvd4arab.com

هناك شعب أشجع من شعب ، قل لى انى شارب ومخمور ونحن الآن فى .. كم الساعة الآن ؟ التاسعة . اذكر كل ما تراه هنا ولا تنسه فأنت الشاهد .. شاهدى .. لقد كنت أحب هذا الولد أنطونيو .. كان ابنى الذى لم أخلفه .. وكنت أعرف أنه سيموت . ان الكثرة منهم تعيش ولكن الشجاع الحق هو الذى يموت ، وفى كل عام نفقد عددا من الشجعان ، أتعرف لماذا نفقدهم ؟ انها لعبة كبيرة جدا .. لعبة عالمية ما تراه فى الساحة هو الفصل الأخير فقط منها . واذا لم تصدقنى فتصور أسبانيا بلا مصارعة ثيران . من المجنون الذى يأتيها ؟ ان احصاءاتنا الرسمية تقول ان بلادنا تستقبل فى الصيف موسم المصارعة ربع مليون سائح يوميا أو ربما خمسين ألفا ، لا أذكر الرقم . لعنة الله على الأرقام ! كذا ألف ينفقون كذا مليون دولار . ألغ المصارعة تلغ الدولارات ، أقم حفلات المصارعة واستحضر ثيرانا متوحشة واجعلها تنفرد بالرجال ، ماذا يحدث ؟ الرجال يقتلون الثيران .

ولكن لابد أن تقتل الثيران بعض الرجال ، وبغير أن تقتل الثيران بعض الرجال فلا لذة فى المصارعة ولا متعة . أتصدق أن هؤلاء الناس الذين يجيئون من كل مكان الى الأرينا يأتون لكى يروا الرجل ذا السيف

يقتل الثور الأعزل ؟ انها كذبة كذبة . انهم يأتون على أمل أن يقتل الثور المتوحش الرجل ذا السيف ، وحبذا لو حدث القتل أمامهم ، انهم لا يجاهرون برغبة كهذه لأنها تبدو شاذة كريهة غير لائقة بالرجل المتحضر ، ولكنها وأقسم لك الرغبة الكامنة فى صدورهم . عرهم من ملابسهم ونفاقهم وتظاهرهم لتجدها ملتوية على نفسها كالثعبان هناك .. نحن نعرف هذا وأصحاب الفنادق يعرفون هذا ، وشركة كوك تعرف هذا ، ومصلحة السياحة عندنا تعرف هذا ، والبنوك والحكومة والدولة والكنيسة تعرف هذا ، كلها تعرف أن كذا رجلا سيقتلون فى هذا الموسم كذا ثورا ، وان كذا ثورا ستقتل على وجه التقريب كذا رجلا . ولا أحد أبدا يفعل شيئا لمنع هذا القتل ، بالعكس انها كلها تتعاون وتتسابق لكى يتم القتل على أكمل صورة . الحكومة تصنع الدعاية فى الخارج وتدعو الناس من جميع أنحاء الأرض كى يحضروا الى أسبانيا لرؤية المصارعة ، أى لحضور القتل .. وشركة طيراننا تنقلهم ، وأصحاب فنادقنا يصنعون كل ما فى وسعهم لراحة المدعوين ، وشركات السياحة تهيىء لهم بجوار المشاهدة نزهات ونزوات ، والبلدية تقيم الأرينا وتؤجر المقاعد . والكل سعيد ، السياح ينفقون بسعادة ، ونحن نقبض بسعادة ، والتفرج على المصارعة متعة

Loolog
www.dvd4arab.com

العمر ، وماذا يهم بعد هذا اذا كانت تلك السعادة كلها مقابل أرواح خمسة أو عشرة أو عشرين رجلا كل عام ؟ وخاصة ونحن اذا مات أحدهم ، أو أصيب بالعجز الكامل هللنا له وضججنا وتوجناه بطلا وعاملناه معاملة لا يحظى بها شهيد الواجب والجندى فى الميدان • أنا لا أعرف من أين أنت قادم ولا يهمنى أن أعرف ، ولكنى أرجوك أن تكون الشاهد ، شاهدى ، وأن تنظر الى ما وراء هذا الباب • فلو كان الأمر بيدى لوضعت على الحجرة أو على قبره لافتة مكتوبا عليها بالخط الكبير : هنا يرقد شهيد مصلحة السياحة الذى قضى وهو يؤدى الواجب المقدس ، واجب تكديس النقود فى أيدى شركات الطيران ومديرى الفنادق وأعضاء المجلس البلدى والمؤسسات ومساهمى البنوك وأصحاب الكباريهات وشركات السفر والسياحة •• أنت لا تصدق •• اذا شعرت أنى أكذب وأبالغ فحدق فى هذه البطاقات من الزهور واقرأ •• أليس هذا كارت لويجى كاستيللو نائب ومدير بنك سبيلا ؟ أو ليست هذه باقة اتحاد أصحاب سيارات التاكسى ؟ •• انها أكبر من هذا •• لابد أيضا أن تكتب : هنا يرقد شهيد المؤامرة العالمية لالصاق مؤهلات ومميزات بطولية خاصة للشعب الأسبانى ، تمهيدا لتقبل الرأى العام المتمدين فكرة المصارعة بين

الرجال والثيران ، كمقدمة لابد منها أيضا لكى يتقبل ذلك الرأى العام نفسه فكرة أن يسمح فى عصرنا هذا لثور متوحش أن يصرع انسانا ويمزقه بطريقة قانونية جدا وبطولية جدا وممتعة جدا •• جدا جدا •

لقد انفردت طويلا بالكلام مع أنى لا أريد الكلام ، أريد البكاء ! ولكنى فى حاجة لمعجزة كى أستطيع فقد تعلمت ألا أبكى ، ولهذا أسكر • ولهذا أنا سكران وأريد أن أسكر أكثر ، أريد أن أبكى على هيئة أن أشرب ، فأنطونيو كان أعزهم ، لقد رأيته وسنه خمسة عشر عاما ، وكان صغيرا ومن أول لحظة عاملته كابنى ولكنهم اختاروه هذه المرة ليقتلوه •

لقد قرأت لا أذكر متى ولا أين ولا يهمنى أن أذكر ، أن فى مصر عادة قديمة ، أنهم فى كل عام يختارون أجمل فتاة لديهم لتلقى بنفسها فى نهرهم النيل ليكثر ماؤه ويفيض ، ولكن قرون الثور فظيعة فظيعة ! أنت لم تجربها ، لم يصبك الرعب ، ما هو أكثر من الرعب ، تفكك العقل ، وتشتت أجزائه هلعا ، لا من الطعنة فى حد ذاتها ولكن من الفكرة ، من الموقف ، من الوحش الغاشم ذى العيون الواسعة البلهاء ، وقرنى الشيطان البارزين من رأسه ، هنا فى فخذى مسنى الوحش فخرب ساقى ، وهنا فى صدرى مسنى الرعب مسة فخرب

Looloo
www.dvd4arab.com

روحى ، لو أزحت ضلوعى يا صديقى لما وجدت وراءها شيئا . أنا انسان مخرب وأنت شاهدى ، أنت باستطاعتك فى جريدتك أن تكتب ، اكتبها .. المؤامرة ، واترك لى أنطونيو فأنت لم تعرفه ، أنت لم تره وهو يداعب القطة ولا وهو ينتحى ركنا معزولا من قاعة أى احتفال ، ولا رأيت الخجل يعتريه حين يزلف لسانه وينطق الكلمة بلهجة تكشف عن أصله القروى المتواضع . أما أنا فأستطيع ، سأفعلها مرة ، وبدلا من الأخبار سأكتب مقالا ، فقط يلزمنى أن أكف ليلتها عن الشراب ، قسما سأكف ليلتها عن الشراب من أجلك يا أنطونيو وبحبى لك يا أنطونيو وبحبى لك يا ابنى الذى لم أخلفه ولم أتزوج أمه ، قسما سأفيق ليلة وأقول الحقيقة كلها يا أنطونيو .

(تمت)

Looloo
www.dvd4arab.com

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه